سيمون توفيق حاجوج

قدموس.. واختطاف أوروبا

رواية للنشء الجديد

سيمـــون توفيق حاجـــوج

قدموس..

واختطاف أوروبا

رواية للنشء الجديد

1999/8/30

- نسخة منقحة عام 2022

- لوحة الغلاف: إليسار سيمون حاجوج

الإهـــــداء:

إلى زهرتي المتفتحة أبداً

الواعــدة بحيــاة جديــدة

ابنتي إليسار

مـــدخـل إلـى الروايــة

تجري أحداث الرواية في الممالك الكنعانية على الساحل السوري (مملكة صور، مملكة جبيل)، وفي مدينة بابل فيما بين النهرين، وفي بلاد الإغريق (اليونان).

تتحدث الرواية كيف قام زيوس، كبير آلهة الإغريق، باختطاف الأميرة أوروبا، ابنة ملك صور، وكيف قرر أن يخلّد اسمها إلى الأبد بإطلاقه على القارة التي تقع خلف جبل الأوليمب، حيث كانت بلا اسم، فأصبح اسمها منذ ذلك الحين (قارة أوروبا).

كانت مدينة صور، في عهد ملكها أجينور، قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من الازدهار والتوسع، حيث امتدت مستعمراتها ومراكزها التجارية وحواضرها السكنية في أنحاء حوض البحر المتوسط، ناشرة عمارتها ومعارفها فيه لتصل إلى إسبانيا غرباً حتى بات اسمه (البحر الكنعاني).

الملك أجينور يحظى بمكانة مرموقة بين الملوك الكنعانيين، وكان يسعى دائماً إلى تحقيق هدفه بتوحيد هذه الممالك في كيان واحد يكون له شأن كبير في المنطقة برمتها. وقد تمكن، في سياق هذا المسعى، من تحويل الاحتفال بعيد قيامة (الإله أدون)، وهو العيد الكنعاني الشهير، إلى احتفال مركزي واحد ضخم تشارك فيه جميع الممالك الكنعانية، ويقام كل عام في إحداها بالتناوب.

يحل هذا العيد عادة في مطلع الربيع من كل عام حيث يقوم الإله أدون، وهو إله المطر والرعد والبرق لدى الكنعانيين، من الموت (أي من العالم السفلي) وذلك بمساعدة زوجته وحبيبته (عشتار)، وهي إلهة الحب والخصب والجمال، فينبعث الربيع في الطبيعة ويعم الخصب والخير من جديد في الزرع والضرع. وقد استمر الكنعانيون بالاحتفال بهذا العيد إلى وقت متأخر حتى ما بعد ميلاد السيد المسيح.

كان لملك صور ثلاثة أبناء هم (فينيق) و(كيليك) و(قدموس)، وابنة واحدة اسمها (أوروبا) هي الصغرى بين أشقائها.

أما في الجانب الآخر من البحر الكنعاني، أي في بلاد الإغريق، فقد انتهى الصراع بين الآلهة بانتصار الإله زيوس وإخوته على والده كرونوس وأعمامه حيث تسلم زيوس زمام الأمور واتخذ من قمة جبل (الأوليمب) في اليونان مسكناً له ولآلهته، يمارس من خلاله مسؤولياته في إدارة مجمع الآلهة وشؤون الكون.

ولكن ما أن استتبت الأمور لزيوس حتى أخذت شخصيته الفظة بالطغيان على حياة البشر والآلهة، على حد سواء، فقد كان شرساً، حاد الطباع، ماجناً، سكيراً، وفوق هذا وذاك كان مزواجاً يتنقل من عشيقة إلى أخرى، سواء من البشر أو من الآلهة.

كانت زوجته هيرا شديدة الغيرة ومتمسكة بمكانتها ككبيرة الإلهات. فراحت تراقبه وتحصي حركاته وسكناته، ما خلق في نفسه اليأس وأجبره على الانكفاء في قمة جبل الأوليمب يكابد شعوراً قوياً بالفراغ والإحباط، يُمضي أيامه ولياليه جالساً على أريكته، أو متسمراً أمام (نافذة الأرض) يتسلى بمراقبة حركة البشر على الأرض.

وفي لحظة ما، قررت ابنته أفروديت، ربة الحب والجمال أن تختار عشيقة جديدة تقدمها له، أملاً منها في أن تملأ فراغه وتضع حداً لسأمه وضجره.

وقع اختيار أفروديت على الأميرة أوروبا ابنة أجينور ملك صور، التي كانت صبية فاتنة الجمال وقد بلغت السادسة عشرة من عمرها، وما إن رآها زيوس حتى أخذت بلبه، وأعجب بها أشد الإعجاب، وراح يحتسي المزيد من النبيذ الكنعاني الذي يسميه (السائل السحري الذي يذهب بشاربه إلى عالم آخر) إلى أن وقع على الأرض مخموراً.

أخذ زيوس على الفور يتدارس الأمر مع أفروديت، وبعد أخذ ورد استقر رأيه على اختطاف الأميرة أوروبا بالحيلة قائلاً: ما لا يؤخذ بالرضا يؤخذ بالقوة، وما لا يؤخذ بالقوة يؤخذ بالحيلة.

يضع زيوس خطة الاختطاف، ويقرر تنفيذها في غمرة احتفالات الكنعانيين بعيد قيامة الإله أدون التي ستقام هذا العام في مدينة جبيل.

تتضمن الرواية الكثير من الأحداث التي تتصاعد وتيرتها مع اختطاف زيوس للأميرة أوروبا وقيام شقيقها قدموس بالبحث عنها في بلاد الإغريق، حيث يبني في تلك البلاد مدينة على شاكلة المدن السورية ويسميها (طيبة) لتغدو هذه المدينة من أهم الممالك الإغريقية التي أصبحت معلمة المدن الإغريقية تنقل إليها الحضارة السورية، كالكتابة والتعدين وزراعة الحنطة والعنب وغير ذلك من فنون وعلوم الحضارة السورية.

***

{{ مدينة صور العظيمة. . . وحلم الأميرة أوروبا }}

أفاقت الأميرة من نومها مذعورة عند الفجر وهي تصيح: قدموس.. قدموس وما إن جلست في سريرها، واستعادت بعضاً من وعيها، حتى أدركت أنه الحلم ذاته.

أفاق كل من في القصر على صياحها، وعلى الجَلَبة التي أحدثتها الخادمة في مواساتها، وهرعوا جميعاً إلى نجدتها.

إلاّ أن أحداً لم يكن ليستطيع أن يهدئ من روعها، ويبعث الاطمئنان في نفسها المضطربة، كشقيقها قدموس الذي اعتادت الركون إليه، فهو الأقرب إليها بين أشقائها، والأكثر اهتماماً بها وتفهماً لمشاعرها.

الحلم المزعج يراود الأميرة أوروبا في نومها

وبالفعل، فقد كان الأمير قدموس أول الواصلين إليها، جلس بحنوٍّ إلى جانبها على طرف السرير، وراح يمسح بيديه القويتين شعرها الخرنوبي الناعم، المُنسدل فوق كتفيها بلطف، وهي ترتجف من شدة الخوف، وقد اغرورقت عيناها السوداوان بالدموع، وألقت برأسها فوق كتفه، فضمها وأخذ يهدئ من روعها قائلاً:

– ما بكِ يا أختاه، أهو الحلم ذاته؟.

– أجل!.

– ألم تُصلّي لأشمون[1] كما نصحك كاهن القصر؟. فأشمون هو الشافي يا أختاه.

– بلى، فأنا أصلي كل ليلة، ولكن...

قاطعها، وقد أرادت أن تخبره بما استجد لها في الحلم هذه الليلة:

– لا بد أن تضرّعك لأشمون لم يكن كافياً، عسى أن تزيدي من صلواتك، فيرأف بحالك ويريحك مما أنت فيه، ويدخل الطمأنينة إلى قلبك.

– لا يا أخي، فالأمر مختلف الليلة، فقد استجاب لي أشمون وانتشلني من يديِّ المرأة الشقراء، وأعادني إلى حضن المرأة السمراء، فشعرتُ وكأنه أعادني إلى حضن أمي. أما المرأة الشقراء فقد هربت غرباً، بعد أن نَهَرَها أشمون، وهي تضحك وتتوعد قائلة: سأعود...سأعود... ثم شقّت صفحة الماء، وغاصت في مياه البحر واختفت.

لمعت عيناه قليلاً، وقد شعر ببارقة أمل:

– كفةُ مَنْ كانت راجحة في النزاع يا أختاه؟.

أجابت، وقد أجهشت بالبكاء:

– كفة الشقراء الشابة يا أخي.

---

(1) – أشمون: إله الصحة والطب والشفاء عند الكنعانيين، رمزه الحية، وهي رمز الطب في أيامنا هذه. أقيم معبده على نهر الأولي في لبنان، الذي كان يعرف بنهر أشمون، حيث يغتسل المرضى بمياهه راجين الشفاء. ويسميه الإغريق أسمونيوس

لم يَدُمْ لمعان عينيه طويلاً، فقد أدخل كلام الأميرة الهواجسَ والقلقَ إلى قلبه، فقال في نفسه: لا بد أن أختي في خطر، فسلوك الآلهة ومكائدها يخضع لمنطق لا يفهمه البشر.

وفي هذه الأثناء وصل الملك وأبناؤه، بعد أن أرسل في طلب كاهن القصر وكبير العرافين، علّهما يكونان قد توصّلا إلى تفسير حلم الأميرة، الذي ما فتئ يراودها كل ليلة في الآونة الأخيرة.

ولدى سماعهم ما قالته الأميرة عن استجابة أشمون لصلواتها ظهرت بعض أمارات الارتياح على وجهيهما، وشعر الكاهن أنه أمسك برأس الخيط في فهم دلائل الحلم وتفسيره، ولكنه آثر ألا يبوح بذلك إلا للملك وحده، فهو يرى أن الخطر مازال يُحيق بالأميرة.

ومع حلول عصر ذلك النهار الثقيل، لم يعد قدموس يطيق البقاء في القصر، فذهب إلى الحديقة المطلة على البحر، والمليئة بشتى أنواع الورود والزهور، واقترب من الشاطئ، وجلس على صخرة مرتفعة قليلاً، حيث كانت خيوط الشمس تداعب برفق هدأة الموج في ذلك الغروب الجميل، ومويجات الماء الناعمة المتلاحقة تلثم الصخور بلطف وتوشوشها وكأنها تريد أن تقول شيئاً.

امتدت نظرات قدموس عبر الماء بعيداً باتجاه الغرب، وغاص تفكيره عميقاً، فارتسم أمامه شريط من الصور، تتابعت فيه صورة عائلته، وأمعن يتأمل في عظمة صور وقوتها، وحكمة والده وقوته، ولكن حلم شقيقته أوروبا كان يقفز إلى ذهنه بين الفينة والأخرى ليقطع عليه تأمله، فتنتصب أمامه جملة من التساؤلات التي لم يهتدِ إلى الإجابة عنها:

- ما هذا الحلم، أهو نذير شؤم أم بشارة خير؟.
- علامَ تدل المرأة الشقراء في ذلك الحلم اللعين؟.
- ما الذي يخبئه المستقبل لشقيقتي؟.

كانت هذه التساؤلات الجاثمة على صدره، تثير القلق في نفسه، وتكاد تقطع أنفاسه خوفاً على شقيقته، بل خوفاً على أي شيء آخر في صور أو كنعان كلها.

لم يكن يدري أن هذا الحلم سيغير مصير شقيقته وحياة أسرته، ويكون له أثراً كبيراً على مدينته التي يحبها، وعلى المنطقة كلها، بل على العالم بأكمله.

***

كانت تلك هي الأميرة «أوروبا»، ابنة أجينور ملك صور العظيم، القوي والعادل، الذي يستمد قوته من الإله «إيل»[2]، وعدله من الإله «شَمَشْ»[3] ليحكم شعبه بالمحبة، فيطيعه الشعب ويبادله إخلاصاً بإخلاص، ووفاءً بوفاء.

وللملك أجينور ثلاثة أبناء وبنت واحدة هي الأميرة أوروبا، الصغرى بين أشقائها، حَبَتْها الطبيعة جمالاً أخاذاً، لا يضاهيها فيه سوى جمال «عشتار»[4] التي صنعتها، فذاع صيتها في كل بلاد الشرق وبلاد الإغريق.

أما الأبناء الثلاثة فهم الأمير "**فينيق**"، الأكبر بين إخوته، وهو بحار عظيم ذو خبرة واسعة في شؤون البحر والملاحة.

والأمير "**كيليك**"، الأوسط بينهم، فارس شجاع، لا يُشق له غبار، واسع الاطلاع والمعرفة في شؤون البر.

الأميرة أوروبا مع رايات النسر الكنعاني

(2) – إيل: إله السماء ورئيس مجمع الآلهة عند السوريين القدماء.

(3) – شَمَشْ: إله العدالة عند الكنعانيين، يقابله شَمَشْ إله الشمس عند البابليين الذي سلم حمورابي شريعته الشهيرة.

(4) – عشتار: إلهة الحب والجمال والخصب عند السوريين القدماء.

أما الأمير **قدموس**، وهو الأصغر بين أشقائه، والأكثر قرباً من أخته أوروبا، فقد منحته الآلهة، إضافة إلى بأسه وفروسيته، القوة والحكمة والشجاعة والمعرفة الواسعة في أحوال الشعوب والبلدان، لذلك فقد عهد إليه والده الملك بالاهتمام بشؤون شعوب «البحر الغربي»[5] خصوصاً الإغريق، الذين كانت بلادهم، كبقية بلاد البحر الغربي، تشكل هدفاً لامتدادات الكنعانيين الحضارية ونشاطهم التجاري والتعميري، في الوقت الذي كان فيه الإغريق ينظرون إلى الكنعانيين نظرة ملؤها الغيرة والحسد لما يبدونه من تفوق وحيوية، فيحاولون عرقلة نشاطهم في البحر بمختلف الوسائل، إلا أن أخطرها كان سعيهم الدائم إلى التغلغل في جزيرة قبرص، بدفع المزيد منهم إلى استيطانها وإقامة المستعمرات فيها بهدف منافسة الوجود الكنعاني فيها.

وقد لُقِّب قدموس في صور وكنعان كلها بالأمير "ذي القلبين" لأن له قلباً يفكر وقلباً يحارب.

أما الملك أجينور، فقد كان الأقوى بين ملوك كنعان والأكثر شهرة وشعبية، حلمه الأكبر توحيد ممالكها، فهو دائم التفكير والبحث عن أنجع السبل لتحقيق هذا الحلم، فعلاقاته قوية ومتينة مع سائر الممالك، يهبُّ لنجدتها في نوائبها وملمّاتها، ويشاطرها أفراحها ومسراتها، ولم يكن يتردد يوماً عن المشاركة في أية مناسبة أو نشاط يقام في أي مكان من أرض كنعان، خصوصاً تلك الاحتفالات العظيمة التي تقام في كل عام، وتعم كنعان بأسرها، في عيد قيامة الإله «أدون»[6]، حتى بات ذلك تقليداً راسخاً، وعرفاً شائعاً في كل الأرجاء.

أما صور، التي نمت وازدهرت كثيراً في عهد ملكها أجينور، فقد باتت تنوء تحت وطأة نشاط سكانها الذي لا يهدأ، حتى ضاقت بهم حدود مدينتهم، ولم يعودوا يجدون فيها متسعاً لطموحاتهم وحيويتهم، مما حدا بهم إلى توسيع مداها الحيوي، بزيادة نشاطهم التجاري، إلى آفاق

---

(5) – البحر الغربي: كان السوريون القدماء يطلقون هذا الاسم على البحر الأبيض المتوسط، ويسمونه أيضاً البحر الأعلى. يقابله شرقاً البحر الشرقي أو الخليج الأدنى وهو الخليج العربي حالياً. وعند عرب الجزيرة العربية خليج العجم، وعند الفرس الخليج الفارسي.

(6) – أدون أو أدوني: إله المطر والرعد والصواعق عند الكنعانيين، ومعناه (السيد)، وحيث إن الكنعانيين يضيفون إلى الأسماء حرف الياء للتصغير والتحبب والملكية فقد أصبح الاسم أدوني، وبعد أن اقتبسه الإغريق أضافوا إليه حرف (s) فأصبح أدونيس.

أبعد ليشمل ما تصل إليه سفنهم ومراكبهم البحرية[7] التي أصبحت كالأذرع تمتد بعيداً عن الساحل القريب إلى أقاصي البحر البعيد، ناقلة إلى أنحائه ثمرات حضارتها ومعارفها.

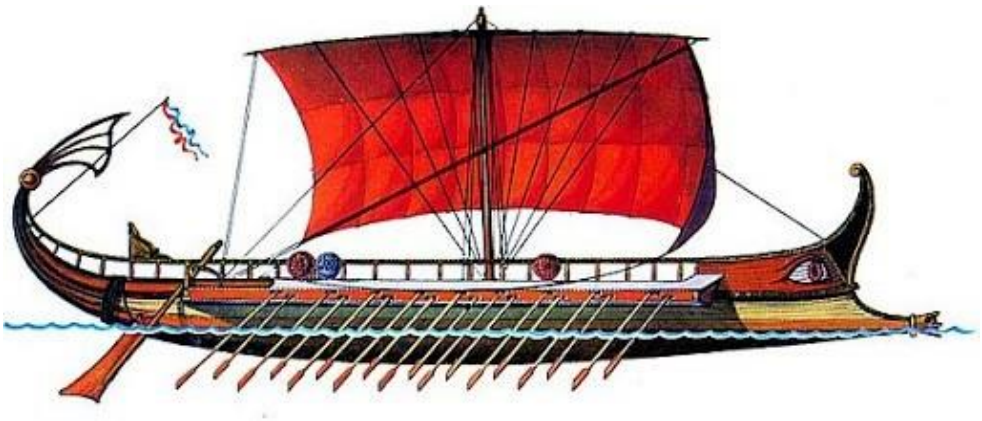

سفينة كنعانية

وهكذا غدت صور إحدى منارات الكنعانيين، التي ساهمت في تبديد ظلام شعوب البحر الغربي، التي كانت ترى في تلك السفن أعجوبة من أعاجيب الكنعانيين، وهي تمخر عباب البحر من أقصاه إلى أقصاه، ناشرة أشرعتها الأرجوانية[8] تربط بين شواطئه كالشرايين التي تنقل الدم والغذاء إلى أنحاء الجسم، ليغدو البحر الغربي برمته بحيرة كنعانية.

هكذا كانت حال صور، وهكذا كانت حال أسرة الملك أجينور.. ثراء ورفاهية، أمان واطمئنان، إلى أن حصل ما عكر صفو الأسرة، لا بل صفو صور وكنعان كلها.

***

(7) – الكنعانيون: هم أول من قهر البحر وركب أمواجه، فقد جالوا فيه حتى وصلوا إلى مضيق أعمدة ملكارت (جبل طارق حالياً) وتجاوزوه إلى الشواطئ الغربية لقارة أوروبا وصولاً إلى بريطانيا شمالاً، وإلى شواطئ أفريقيا الغربية جنوباً.

(8) – الأرجوان: صباغ أحمر يستخرج من بعض الأصداف البحرية، التي كانت متوفرة فقط في الساحل السوري، حيث تعطي بعد موتها وتفسخها ألواناً متدرجة بين الوردي والأحمر القاتم، حسب درجة التركيز. وقد بقيت هذه الصناعة حكراً على الكنعانيين، يحتفظون بأسرارها سنين طويلة، إلى أن انقرضت هذه الأصداف لكثرة استخدامها.

ففي الأيام الأخيرة من أحد الشتاءات، وقبل بضعة أيام من حلول عيد قيامة الإله أدون، حيث الناس منهمكون بالاستعداد للاحتفال بالعيد، وجدت الأميرة أوروبا نفسها، وقد بلغت السادسة عشرة من عمرها، رهينة حلم مزعج ما برح يراودها كل ليلة عند مطلع الفجر، وهو الوقت الذي غالباً ما تكون فيه أحلام البشر حقيقية، فترى نفسها في جزيرة قبرص محط نزاع عنيف بين امرأتين تدعي كل منهما ملكيتها للأميرة أوروبا.

المناطق التابعة للكنعانيين في البحر المتوسط (البحر الكنعاني)

كانت الأولى حنطية اللون، وقورة، متزنة، مكتنزة، تفيض بالنعم والمكرمات، يشير مظهرها إلى عراقة مغرقة في القدم، ويدل كلامها وسلوكها على ثقة كبيرة بالنفس.

أما المرأة الثانية فكانت شابة شقراء اللون، نحيلة القد، رعناء، مدّعية، يدل مظهرها وكلامها على أنها غير ذات أصل، وحديثة العهد في النعم.

تقوم المرأة الشقراء بانتزاع الأميرة من حضن المرأة السمراء وتتجه بها غرباً، لتقوم السمراء باستعادتها من جديد، فتضمها إلى صدرها بحب وحنان وتتجه بها شرقاً، وهكذا تتصاعد حدة الصراع على الأميرة إلى أن تتمزق ثيابها، ويتهشم جسدها، فتستفيق من نومها مذعورة مضطربة.

ولم تكن الأميرة، في أغلب الأحيان، لتستطيع النوم ثانية، فتمضي بقية ليلها مستيقظة حتى الصباح، تفكر وتتأمل في معنى هذا الحلم.

مضى على هذه الحال بضع ليالٍ، لم تذق الأميرة فيها طعم النوم الهانئ، أما في النهار فكانت تلهو مع صديقاتها في حديقة القصر، مشرفة بنفسها على سقاية الأزهار والورود ونموها تمهيداً لجمعها في عيد قيامة أدون.

الأميرة أوروبا في إحدى نزهاتها في حديقة القصر

وكانت كلما تذكرت حلمها، تشعر بأن شيئاً ما سيحدث، فينتابها القلق، ويكاد قلبها يقفز من صدرها، فتتوقف عن اللهو والمرح، وتتسمر في مكانها لحظات، تسهو خلالها عما يحيط بها، وتنظر إلى البعيد البعيد، إلى ما وراء الأفق العريض، حيث تلتقي زرقة السماء بزرقة البحر، وتغرق في تفكير عميق، تحاول فهم حقيقة شعورها، ولكن صياح صديقاتها وصخبهن، لا يلبث أن يقطع عليها تفكيرها، ويعيدها إلى لهوها من جديد.

ومع أفول النهار، واقتراب المساء يزداد قلق الأميرة، لتبدو مرهقة متعبة مع حلول موعد نومها. فتحاول مغالبة النوم والهرب منه، خشية أن تجد نفسها من جديد وجهاً لوجه أمام ذلك الحلم المرعب.

أصبح هذا الحلم مصدر قلق يخيم على الحياة الهادئة في قصر الملك. وباتت حالة الأميرة البائسة، الهاجس الذي يشغل الجميع، فلا أحد يتوانى عن محاولة التخفيف عنها، فها هو كاهن القصر يحاول تهدئة روعها قائلاً:

– اطمئني يا صغيرتي، فقد أرسل مولاي الملك وزيره الحكيم "موخو" إلى بابل، ليعرض الأمر على كاهنها الأعظم "برغوشا" وقد اقتربت عودته، ولا بد أن يأتينا بالجواب الشافي. فبرغوشا يا صغيرتي يعرف عن مشيئة الآلهة، ما لا يعرفه غيره من كهنة سوريا في شرقها وغربها.

فيردف الملك على كلام الكاهن محاولاً أن يزيد في طمأنتها، وهو يخفي حزنه وقلقه بابتسامة مصطنعة قائلاً:

– أجل يا بنيتي، ستكونين بخير عما قريب، بمشيئة الآلهة، فقد أمرنا وزيرنا موخو بالإسراع في عودته من بابل قبل حلول العيد.

ولكن ذلك لم يكن ليُدخل الراحة إلى قلب الأميرة، فهي تشعر، على الرغم من كل شيء، بأنها وحيدة في مواجهة ذلك الحلم.

***

{{ رحلة الوزير موخو إلى بابل }}

كان الوزير موخو يتمتع بالحكمة، والرؤية الثاقبة والبعيدة في شؤون الحياة، إضافة إلى خبرته الواسعة في مسالك الطرق الواصلة بين أنحاء سوريا شرقاً وغرباً، وعلى الرغم من ذلك فقد واجهته في رحلته إلى بابل مصاعب جمّة، حيث ضلّ طريقه مرات عديدة، فكان يجد نفسه، بعد مسيرة ساعة أو ساعتين، عائداً من جديد إلى حيث انطلق.

إضافة إلى ذلك، فقد كان التشويش يعتري بصره كلما يمّم وجهه شطر بابل شرقاً، بينما تصبح الطريق واضحة جلية أمام عينيه كلما نظر غرباً نحو صور. وكأن قوة غامضة خفية لا تريد له الوصول إلى بابل، ولم يجد تفسيراً لذلك سوى أنه من فعل الآلهة لغاية لم يدركها.

وبعد عناء، جلس ليستريح قليلاً، فغلبه التعب، واستسلم للنوم لحظات قليلة، استيقظ بعدها مضطرباً، وقد سمع صوتاً يهمس في أذنيه: "مهلك أيها الحكيم، فإنك لن ترى بابل بعينيك مهما كلفت نفسك ومن معك من عناء، فمشيئة الآلهة لا تغيرها إرادة البشر".

انتصب واقفاً كالملسوع، ونظر حوله فلم يجد سوى مرافقيه وحراسه، فوقع في حيرة من أمره، هل يواصل سيره إلى بابل، أم يعود أدراجه إلى صور؟.

وبعد فترة قصيرة من التردد والتفكير، حزم أمره واستأنف المسير ثانية، فهو مصمم على تنفيذ مهمته، وحريص كل الحرص على مصلحة الأميرة التي يحبها ويحترمها.

وبعد عناء طويل وصل إلى مشارف مدينة بابل، ولاحت له أسوارها الضخمة من بعيد، وبساتينها الخضراء الواسعة، وبدأ ضجيج الحياة وصخبها يطرق أذنيه شيئاً فشيئاً، فاستبشر خيراً، وزال تعبه، وامتلأ نشاطاً وحيوية، وانبعث الأمل في نفسه من جديد.

ولكن أسئلة محيرة انتصبت أمامه ولم يجد لها جواباً: هل تمكن من الوصول إلى بابل رغماً عن مشيئة الآلهة؟. أم أن ما حصل له في الطريق ما هو إلا أوهام خلقها في نفسه الإعياء، ومشقة السفر، وشدة التحفز الذي اعتمر نفسه لتنفيذ مهمته؟، فها قد أدركته السنون، ولم يعد يحتمل متاعب المهمات الطويلة الشاقة.

وأخيراً قرر ألا يبقى أسير تساؤلاته، فتركها جانباً، وهمّ بالدخول إلى بابل، ولما دنا من "باب عشتار"[9] استوقفه الحراس بلطف واحترام، فهو في موكب ملكي، وتعرفوا إليه، فإذا هو الوزير موخو، ممثل ملك صور.

موكب الوزير موخو عند وصوله إلى باب عشتار في مدينة بابل

رحب الحراس بالوزير موخو ورافقته ثلة من الحرس الملكي إلى القصر، حيث استقبله هناك القائمون على مراسم التشريفات الملكية وأخبروه أن ملك بابل والكاهن برغوشا يقومان بجولة في المدن والقرى البابلية للإشراف على تحضيراتها للاحتفال بعيد قيامة الإله "تموز"[10] الذي يحل بعد يومين، ولن يعود قبل حلول المساء، فأيقن عند ذلك أنه لن ينهي مهمته بالسرعة التي طلبها منه الملك أجينور.

---

(9) – باب عشتار: هو الباب الرئيسي الشهير لمدينة بابل ويقع على سورها الخارجي الضخم. وهو موجود حالياً في متحف البرماغون في برلين.

(10) – تموز: إله المطر والرعد والصواعق عند البابليين، يقابله الإله أدون عند الكنعانيين.

ملك بابل يشرف على تحضيرات الاحتفال بالعيد في أحياء المدينة

ملك بابل يتجول خارج المدينة ويتفقد تحضيرات الاحتفال بالعيد

وفي المساء، عاد ملك بابل من جولته متعباً، ولما علم بوجود الوزير موخو أسرع في طلبه، على الرغم من تعبه، ولا غرابة في ذلك، فالوزير موخو هو ممثل ملك صور العظيمة، الذي يحظى باحترام وتقدير جميع ملوك سوريا، خصوصاً ملوك ما بين النهرين، الذين يرون في ممالك الساحل السوري الغربي أهمية كبرى، فهي تشكل نافذة واسعة تطل منها طموحاتهم واهتماماتهم في بلدان البحر الغربي.

دخل الوزير موخو إلى قاعة العرش، وقد بدا التعب واضحاً على محياه، فرحب به الملك ترحيباً يليق بمن في منزلته.

وراح يستفسر منه، بودٍ ظاهر، عن سبب إرهاقه واللهفة البادية على محياه، وعن بواعث زيارته المفاجئة إلى بابل.

الوزير موخو في حضرة ملك بابل

خاطبه الملك قائلاً:

– هلاّ أخبرنا وزيرنا الحكيم عما حدا به إلى قطع هذه المسافة الطويلة ليقوم بزيارتنا في بابل؟.

أجاب الوزير موخو بكياسته المعهودة قائلاً:

– إن شرف زيارتكم لا يقاس بالمسافات يا مولاي.

فابتسم الملك، وقد أعجبته لباقة الوزير موخو في الحديث، وقال مطرياً:

– أحسنت قولاً أيها الوزير، ولكن عسى أن يكون وراء زيارتكم خيراً.

وأخذ الوزير يشرح ما دفعه للقدوم إلى بابل، ويقص على الملك والكاهن برغوشا ما جرى للأميرة أوروبا، وما واجهه في الطريق إلى بابل.

كان برغوشا ينصت إلى حديث الوزير باهتمام بالغ، ويبتسم بين الحين والآخر ابتسامة الواثق، العارف ببواطن الأمور، ويتبادل مع الملك نظرات الانسجام والتوافق.

لم تكن معاني تلك النظرات والابتسامات تخفى على الوزير موخو، وكانت تبعث في نفسه شيئاً من الراحة والطمأنينة، حيث أدرك بحكمته وخبرته الطويلة، أن وراءها أجوبة مناسبة على ما يقول، لذلك غض نظره عنها، وآثر الاستمرار في حديثه حتى النهاية.

ولما فرغ الوزير من كلامه، شرع الكاهن برغوشا بالحديث، بعد أن استأذن الملك، قائلاً:

– لا بد أن خطراً ما قادم من الغرب أيها الوزير، من تلك البلاد التي تدعى بلاد الإغريق، فقد بدأت تظهر عليهم في الآونة الأخيرة، بوادر التنبه إلى مصالحهم، وهم يستفيقون شيئاً فشيئاً من سباتهم، لا بل من بدائيتهم وتخلفهم، بمساعدة آلهتهم الفتية.

ولا شك عندي أن إخوتنا في كنعان يتابعون ذلك جيداً، ويلاحظون مدى الضيق والتذمر الذي يبديه هؤلاء القوم من نشاطكم في البحر الغربي، ومن سفنكم وهي تجوب أنحاءه جيئة وذهاباً، لا يستوقفها أي عائق، وكأن البحر ملكاً أبدياً لها.

وتابع برغوشا:

– وهذا ما أصبح واضحاً لنا في بابل، خصوصاً مولاي الملك، الذي يعلم علم اليقين خطورة تحركات هؤلاء القوم ومطامعهم، ويراقبها باهتمام بالغ، لأن خطرها عليكم هو خطر علينا جميعاً في هذه البلاد.

تدخل الملك قائلاً:

– وهذا ما دعانا، أيها الوزير، إلى القيام بتلك الزيارات المتلاحقة إلى كنعان، حيث تداولنا مع ملوكها طويلاً مشكلة الإغريق، ولا شك أن الوزير موخو لا يزال يذكر تلك المداولات، وقد حضر جانباً مهماً منها مع الملك أجينور.

حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع وتظهر فيها أشجار النخيل

وهنا ظهر على وجه الوزير موخو بعض الامتعاض، بسبب شعوره بأنه مُجبر على الإنصات إلى محاضرة مكررة، يحفظ جميع مفرداتها عن ظهر قلب، ولكنه قرر متابعة الحديث، علّه يتوصل إلى نتيجة تخدم الغاية التي جاء من أجلها إلى بابل، كي لا يعود إلى صور خالي الوفاض، فحاول كظم غيظه، ولكن بقية من ضيق قد ظهرت في كلامه، ولم تتمكن حكمته ودرايته من إخفائها:

– بلى يا مولاي، ولكني لم آت إليكم لأستمع إلى شرح عن مسألة الإغريق، فهي واضحة لنا وضوح الشمس، بل جئت إليكم علني أجد تفسيراً لحلم الأميرة أوروبا، ومخرجاً يحررها من هذا

الكابوس الثقيل، كي تعود إلى رونقها وحياتها المعتادة. أما وقد تطرقتم إلى مسألة الإغريق، فلا بأس أن أسأل عن العلاقة بينها وبين حلم الأميرة؟.

لاحظ الملك والكاهن ما ظهر في لهجة الوزير من ضيق، فبادر الكاهن محاولاً توضيح قصده، والتخفيف عن الوزير، وأخذ يقول:

– مهلك أيها الوزير المحترم، فنحن في بابل لا نغفل شيئاً مهما بدا تافهاً، لذلك فإنني أعطف على ما قاله مولاي، وأؤكد أن لآلهة الإغريق مخططات ترمي إلى التمدد في أرضنا ومناطق نفوذنا، ولكننا مع الأسف، لم نتمكن حتى الآن من الوقوف على حقيقة تلك المخططات وتفاصيلها، ولكن ما ندركه جيداً هو أن لهؤلاء الإغريق مآرب وأهداف يتحينون الفرص المناسبة لتحقيقها داخل بلادنا، أو في مناطق نفوذنا وتجارتنا في بلدان البحر الغربي.

أما ما واجهْتَهُ في الطريق، فلا شك عندنا أنه من فعل إله إغريقي، وليس من صنع آلهتنا، ولو كان من صنع آلهتنا لما ترددتْ في الإعلان عن نفسها بوضوح، ولما تمكنّتَ من الوصول إلينا مهما حاولت.

وتابع الكاهن قائلاً:

– ألم يعلن الإله أشمون عن نفسه بجلاء في حلم الأميرة؟.

أومأ الوزير موخو برأسه بالإيجاب، وتابع الكاهن:

– أما وأن الصوت الخفي الذي سمعته في الطريق لم يعلن عن نفسه، فهذا يعني أنه صوت إله غريب، تسلل خفية إلى أرضنا، ليمنعك من الوصول إلى بابل، ويحول دون افتضاح أمره، وتفتّح العيون على مآربه. وهذا ما ينطبق أيضاً على الأميرة أوروبا في حلمها، فالمرأة الشقراء هي أيضاً لم تعلن عن نفسها، أليس كذلك؟.

ودون أن ينتظر جواباً من الوزير، تابع يقول:

– فعليكم بالحذر والحيطة واليقظة لمواجهة ما قد يخفيه هؤلاء الإغريق أو آلهتهم من مفاجآت لا تحمد عقباها.

وهنا أردف الملك قائلاً:

– وليكن معلوماً أن الأمور يرتبط بعضها مع بعض، وأن نشاط البشر لا ينفصل عن مشيئة الآلهة، لذا فإن ما يقوم به الإغريق ينسجم تماماً مع مشيئة آلهتهم.

بدأت معالم الصورة تتوضح أمام الوزير موخو، وقال:

– هلاّ تكرّم مولاي بالمزيد من التوضيح؟

فقال الملك:

– حسناً، ألا تتلاقى محاولات الإغريق للتسلل إلى جزيرة قبرص مع محاولات آلهتهم للتسلل إلينا كما جرى لك وللأميرة أوروبا؟ ألا يعلم الجميع أن محاولات الإغريق لاستيطان الجزيرة تهدف إلى تحويلها من قاعدة متقدمة لكم، إلى سد فاصل يفصلكم عن مناطق نفوذكم وتجارتكم المنتشرة في كافة أنحاء البحر الغربي، بعد أن سكنها مواطنوكم الكنعانيون منذ زمن بعيد، وعمّروها وشيدوا مدنها وقراها، وباتت جزءاً من حياتكم اليومية، وقطعة من أرضكم في البحر، كل ذلك قبل أن يتعلم هؤلاء الإغريق كيف يصنعون زورقاً صغيراً يتنقلون به بين جزرهم القريبة من بعضها بعضاً.

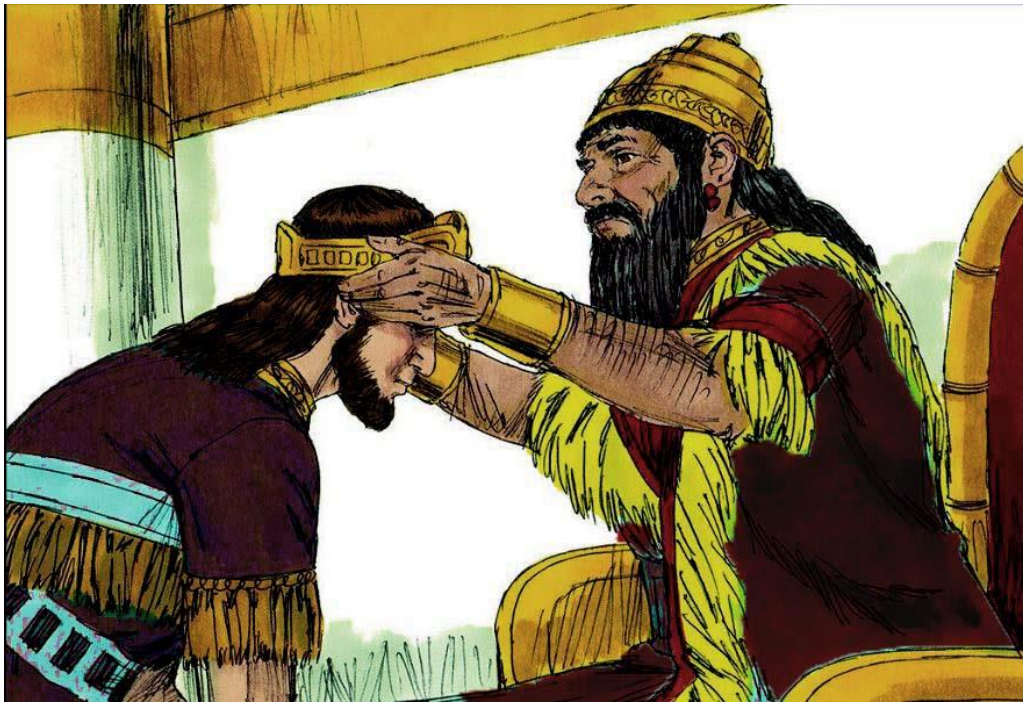

ملك بابل يكرم الوزير موخو

واختتم الملك اللقاء قائلاً:

– أرى أيها العزيز موخو أن في ذلك ما يدعونا جميعاً إلى الاقتناع بأن هؤلاء القوم يتأبطون شراً بنا، وعلينا التنبه والحذر لمواجهته، فأرجو أن يكون ذلك واضحاً للوزير موخو.

أومأ الوزير برأسه موافقاً وقد انفرجت أساريره، وظهرت على وجهه أمارات البشر والارتياح.

عند هذا الحد، انجلت الصورة أمام الوزير، وأدرك أنه وجد الإجابة عن التساؤلات التي واجهته عند مشارف بابل، وعند هذا الحد أيضاً، انتصف الليل، وشعر الجميع بالحاجة إلى الراحة، فهم متعبون، وأمامهم المزيد من العمل في اليوم التالي، فخلدوا جميعاً إلى النوم.

ومع بزوغ خيوط الضوء الأولى لفجر ذلك النهار، قَفَلَ الوزير موخو ومرافقيه راجعون إلى صور، يجدّون في سيرهم، يحدوهم الأمل بالوصول إليها في الوقت المناسب.

ولدى وصوله إلى أرض كنعان، قرر موخو عدم الذهاب إلى صور، وآثر التوجه إلى مدينة جبيل مباشرة، لعلمه بأن الملك أجينور لا بد أن يكون قد وصل إليها في هذا الصباح، للمشاركة في احتفالات العيد، التي تقام هذا العام في جبيل[11].

***

{{ الملك أجينور يشارك الشعب بعيد قيامة الإله أدون }}

في صور، كان التداول بشأن الأميرة يجري بسرية داخل أروقة القصر، فقد رأى الملك منذ البداية أن يكتم الأمر عن الشعب، خشية أن يؤثر على احتفالات العيد، أو على التحضيرات التي تبدأ قبل ثمانية أيام، حيث تقام فيها الصلوات والأدعية التي يرفع الناس فيها رجاءهم إلى عشتار كي تهبط إلى العالم السفلي لتنقذ زوجها وحبيبها أدون من براثن الموت، وتعيده إلى عالم الأحياء،

(11) – كان العرف يقضي بأن تشارك كل الممالك الكنعانية في احتفال كبير موحد، في عيد قيامة أدون، يقام سنوياً في إحدى المدن الكنعانية.

ليعود معه فصل الربيع ويعم الخصب في الأرض، وتُبعث الحياة من جديد، فيضمن الناس الخير والنمو في زرعهم وضرعهم.

الأميرة أوروبا تجمع الورود لتزين بها سلة العيد

أما وقد مضى حتى الآن ستة أيام على بدء هذه الاستعدادات[12]، فقد قطعت نسوة وصبايا كنعان، اللواتي يشاركن الرجال والشبان في هذه الاستعدادات، جنباً إلى جنب، شوطاً كبيراً في تحضير (جنائن أدون)[13]، فقد وضعن التراب في السلال والأصص الفخارية، المصنوعة بعناية، ونثرن فيها بذور القمح والذرة والشعير وغيرها، ووضعنها تحت أشعة الشمس، وأخذن يعتنين بها ويسقينها لتنمو بسرعة وتصبح جاهزة صباح يوم العيد، ويتفنَّنَّ بتزيينها لتتباهى كل منهن بجمال سلتها [14]. حيث تلقي الصبايا هذه السلال صباح يوم العيد، مع تماثيل صغيرة لأدون، في مياه البحر والينابيع والأنهار لتبعث الخصب في الأرض.

أما الملك أجينور فقد قرر، عند حلول المساء، أن يصرف النظر عن انتظار عودة وزيره موخو من بابل، بعد أن أيقن أنه لن يعود إلى صور قبل بزوغ صباح (اليوم الأخير). فأمر بإعداد موكبه للسفر، وأرسل في طلب أبنائه الثلاثة وكاهن القصر للاستماع إلى رأيهم بشأن الأميرة.

وجه الملك كلامه إلى الكاهن:

– لقد تأخر الوزير في عودته، وعسى أن يكون في تأخره خيراً، أما نحن فسنغادر في الصباح إلى جبيل، للمشاركة في صلوات (اليوم الأخير). فهلاّ أطلعتني، أيها الكاهن المحترم، على رأيك بشأن الأميرة؟.

– كنت أود أن أشرح رأيي أمامك وحدك يا مولاي، كي أتيح لك فرصة تقرير ما تراه مناسباً قبل إعلانه على الجميع، أما وقد رغب مولاي بأن يطلع أمراءه على الأمر فليكن ذلك.

صمت قليلاً ليعطي الملك فرصة تقرير ما إذا كان يريد أن يشرك أبناءه الأمراء بالمناقشة، ثم تابع قائلاً:

---

(12) – تستمر استعدادات العيد في كنعان وما بين النهرين لمدة ستة أيام، يليها اليوم السابع الذي يسمى (اليوم الأخير) حيث يصل حزن الناس فيه، على موت أدون أو تموز، قمته، لينقلب في اليوم الثامن، وهو يوم العيد، إلى فرحة عارمة بقيامة أدون من العالم السفلي.

(13) – جنائن: مفردها جنّة، أي (جنة أدون) للتعبير عن الخير والخصب الذي يبعثه الإله أدون في الطبيعة.

(14) – لا تزال هذه العادة متبعة حتى أيامنا هذه، حيث تبذر الحبوب، خصوصاً القمح، بالقطن المشبع بالماء في أوان صغيرة لتنمو مع قدوم عيد ميلاد المسيح.

– إن ما يتراءى للأميرة في نومها واضح وجلي، فالخطر الذي يشير إليه الحلم لا بد أنه قادم من الغرب.

وهنا قطب الملك حاجبيه، إذ دغدغ كلام الكاهن أفكاراً كانت تدور في خلده، فطلب المزيد من الإيضاح:

– هلّا أفصحت أكثر أيها المحترم وأوضحت لنا ما تريد قوله؟.

فقال الكاهن:

– ألم تحاول المرأة الشقراء في الحلم أن تختطف الأميرة وتتجه بها غرباً؟. وبعد ذلك ألم تهرب نحو الغرب بعد أن يطردها أشمون لتغوص في مياه البحر؟. ثم أليس المكان الذي يتكرر فيه الحلم هو جزيرة قبرص أقصى الغرب من بلادنا؟.

هز الملك رأسه، اقتناعاً وقلقاً، وغرق في تفكير عميق، ما لبث الكاهن أن قطعه مستأنفاً:

– لذلك أرى يا مولاي، أن علينا اتخاذ الحيطة والحذر، وتشديد الحراسة والخفر، ومنع الأميرة من السفر، وإبقائها داخل أسوار القصر، ريثما يزول عنها الخطر، فبقاؤها في صور، يجنبها المحظور، أما ذهابها إلى جبيل، فيجلب لها الويل.

عند ذلك توجه الملك إلى الجميع بلهجة قوية حازمة، أراد بها أن يُملي عليهم درساً هاماً، في فهم الأوضاع القائمة في المنطقة، فقال:

– اسمعوا وعوا، وأنصتوا إلي جيداً، إن أخشى ما أخشاه أن يفاجئنا أمرٌ عظيم في مقبل الأيام، فكلام كاهننا المحترم، يتقارب كثيراً مع ما يصلني، في الآونة الأخيرة، عن تحركات الإغريق في حوض بحرنا الغربي، وتحديداً في جزيرة قبرص، مما يبعث على القلق وعدم الارتياح.

واعلموا أن خشيتي هذه ليست ضعفاً ولا وهناً، بل تعبيراً عن التحفز، ورغبةً مني في بث روح اليقظة والانتباه فيكم، فما يصيبنا في صور، يصيب كنعان كلها، لأن صور هي في موقع القلب من كنعان.

وتابع الملك:

– لن أطيل الآن في شرح مشكلة الإغريق، وكيفية معالجتها، فلهذا فسحته الكبيرة بعد العيد. أما الآن فقد قررت الأخذ بنصيحة كاهننا الجليل، فلا أصطحب الأميرة معي إلى جبيل، بل أبقيها هنا في القصر، في مأمن تحت أنظار الحراس ورعايتهم. أما نحن فنكون في جبيل على مقربة من الآلهة، نصلي من أجل الأميرة.

وقع كلام الملك في قلوب الجميع موقعاً حسناً، ما عدا قدموس الذي كانت تتجاذب تفكيره هواجس عدة، فهو قلق على أخته، سواء ذهبت إلى جبيل، أو بقيت في صور.

الأميرة أوروبا تغالب النوم كل ليلة بعد أن يوقظها الحلم المزعج

ساد الصمت قليلاً، انفضّ بعده الجميع عن الملك مغادرين المكان، قرر الملك بعد ذلك التوجه إلى مخدع ابنته أوروبا، ليبلغها رغبته بعدم اصطحابها إلى جبيل، وهو يقلب الأمور على وجوهها، ويحاول أن يهتدي إلى الأسلوب الأفضل لإبلاغها رغبته، وهي التي اعتادت، في كل عام، على مرافقته إلى احتفالات العيد أينما أُقيمت.

وما إن وصل إليها وبدأ يحدثها عن العيد، ممهداً للإفصاح عن رغبته، حتى وقعت المفاجأة، فقد بادرته قائلة:

– ولكني يا أبتِ، لا أرغب بحضور الاحتفالات في جبيل، وأشعر برغبة بالهجوع والسكينة، بعيداً عن صخب الاحتفالات العامة وضوضائها، فهلاّ سمح لي والدي بالبقاء في القصر، لأقوم مع صديقاتي يوم العيد بالاحتفال في الحديقة المطلة على البحر؟. فنلقي بسلالنا وتماثيلنا فيه، قبالة جزيرة قبرص، حيث لنا فيها إخوة يشاركوننا فرحة العيد، فنضفي بذلك على بهجة العيد معنىً جديداً مختلفاً؟.

دُهش الملك من كلام الأميرة، وأخذ يسأل نفسه: هل علمتْ ابنتي بما أفكر قبل أن أبوح به؟ أم أن الآلهة يسرتْ أمري فتحدثتْ بلسان ابنتي عما يجول في خاطري؟... لا بد أن في الأمر سرّ لا أعرفه.

أثار كلام الأميرة الفضول لدى الملك، ورغب في معرفة المزيد عما يدور في خلدها، فقال:

– ولكننا يا ابنتي، في كلتا الحالتين نكون قبالة إخوتنا في قبرص، سواء في صور أو في جبيل، أو في أي مكان من أرض كنعان.

أجابت الأميرة بشيء من الحنكة:

– بلى يا أبتِ، إننا نعيش جميعاً على شواطئ بحيرة كنعانية واحدة، ولكن كل ما في الأمر، أنني أرغب في تزيين سلة العيد بورود حديقتنا الجميلة التي...

قاطعها الملك بانفعال مصطنع:

– ألا يوجد ورود جميلة في جبيل!؟ إن أجمل الورود هي التي تنمو في نهر أدون[15].

– أجل، ولكني لاحظت أن شقائق النعمان في حديقتنا، هذا العام، هي أكثر حمرة من ذي قبل، وهي تزداد احمراراً ورونقاً يوماً بعد يوم مع اقتراب العيد، وأيضاً فقد نمت إلى جانبها ورود جديدة جميلة، لا عهد لي بها من قبل، وسأزيّن بها سلتي يوم العيد، لأتباهى بجمالها شأن صبايا كنعان.

وهنا تظاهر الملك بأنه مضطر للموافقة، وأن ليس أمامه إلا النزول عند رغبتها، ولكن دون أن يدعها تشعر بأن هذه الرغبة هي رغبته أيضاً.

---

(15) – نهر أدون: يسمى حالياً نهر ابراهيم، في لبنان، وهو النهر الذي قتل فيه الخنزير البري أدون وهبط إلى العالم لسفلي.

أجابها:

– ليكن ما تريدين يا ابنتي.

لم تكن الأميرة في حقيقة الأمر تدرك السبب الحقيقي الكامن وراء رغبتها، بل كانت تشعر فقط بدافع داخلي غامض للبقاء في القصر، تبدّى لها بالاحمرار المتزايد لشقائق النعمان، وبجمال الورود الجديدة النامية بينها.

***

في الصباح الباكر، صباح (اليوم الأخير)، غادر الملك أجينور صور إلى جبيل، التي كانت تعج بالمحتفلين من مختلف مناطق كنعان، كعادتهم في كل عام، حيث يمضون هذا اليوم في ساحاتها وشوارعها تعلو محياهم مظاهر الأسف على موت أدون، ويلطمون وجوههم وصدورهم حزناً عليه[16].

كانت الاحتفالات قد بدأت منذ الصباح، واستمرت إلى ما بعد منتصف الليل، حيث توجه الشبان والصبايا بعد ذلك إلى المعبد، ومعهم القادرون، من الرجال والنساء والمسنين، على متابعة هذا الطقس الديني طوال الليل، يحدوهم الأمل بقيامة أدون.

وقد ارتدى الجميع ثياب الحداد السوداء، وزين الشبان صدورهم بشقائق النعمان القانية، أما الصبايا فوضعنها على شعورهن المشعّثة، بينما قام بعضهن بقص شعورهن الطويلة، وقدمنها إلى المعبد كنذور لقيامة الإله أدون، كل ذلك إلى جانب الصلوات والأدعية.

وكان الحزن والبكاء يتصاعدان مع ذبول شقائق النعمان[17] التي يتزينون بها، وهكذا حتى حلول الفجر، فذوت وماتت، عند ذلك ظهرت نجمة الصبح (نجمة عشتار)، التي ما برح المحتفلون يترقبون ظهورها طوال الليل، ويتسابقون إلى رؤيتها، حيث يأمل كل منهم أن يحقق السبق في ذلك، ليكون أول من يعلن حلول يوم العيد.

---

(16) – لا تزال عادة لطم الوجوه والصدور متأصلة عند النساء في سوريا الطبيعية كلها حتى أيامنا هذه تعبيراً عن الحزن والأسى. وتصل أحياناً إلى شق الثياب عند الصدر في حالات الحزن الشديد.

(17) – شقائق النعمان: وتعرف أيضاً بوردة أدون، إذ تنمو كل واحدة منها فوق قطرة من قطرات دم أدون القتيل، وهي تنفرد بين الورود في سوريا بسرعة ذبولها بعد قطفها.

وما إن ظهرت النجمة، حتى هبطت منها عشتار، على شكل شهاب أبيض برّاق، إلى العالم السفلي، ملبية تضرعات المصلين، لإنقاذ أدون، حبيبها وزوجها، من بين الأموات.

وفي صبيحة يوم العيد، انقلب الحزن إلى فرح عارم، وتحول البكاء إلى غناء ورقص، وبدّل الناس ثيابهم السوداء بأخرى بيضاء جميلة، تعلوها قمصان أرجوانية فضفاضة، وغصت بهم ساحات المدينة وشوارعها، وساحة المعبد وأروقته، وارتفعت أصواتهم إلى عنان السماء (أدون قام.. أدون قام..)، وقد امتلأت صدورهم غبطة وفرحاً بقيامته، وأخذوا يهنئون بعضهم بعضاً، فرادى وجماعات، ويرفعون صلوات الشكر إلى عشتار.

صبايا كنعان يحتفلن بعيد قيامة الإله أدون

وبعد ذلك راح المحتفلون يتناولون الخبز، ويحتسون الخمرة، ويعقدون حلقات الدبكة، على أنغام أناشيد العيد، فتهتزّ الأرض تحت أقدامهم، إنها دبكة الإله (بعل)[18]، وخمرة الإله (باخوس)[19]، وخبز الإله (داجون)[20].

وبعد ذلك توجه الملوك والأمراء والكهنة إلى وادي نهر أدون، على إيقاع طقس ديني مهيب، تسير خلفهم جموع الشعب، يتقدمها الشاب الذي حظي بشرف السبق إلى رؤية نجمة عشتار.

وكانت مياه النهر قد اصطبغت باللون الأحمر، لاختلاطها بدم أدون القتيل، ونبتت على جانبيه، وفوق كل قطرة من دمه، شقائق النعمان التي تلونت بلون دمه القاني.

كان الشبان يحملون تماثيل صغيرة لأدون، ممددة فيما يشبه الكفن المصنوع من خشب الأرز أو الصنوبر، وقد غمر بشتى أنواع الورود والأزهار، وأكثرها من شقائق النعمان. فيما حملت الصبايا والنسوة سلالهن الجميلة، وراح الجميع يلقون ما يحملونه في مياه النهر، على أنغام الترانيم الدينية وأناشيد الفرح، بقدوم فصل الربيع، وتجدد الخصب، في دورة حياة لا تنتهي.

***

{{ الإغريق ينظرون بعين الحسد إلى الكنعانيين }}

في الجانب الآخر من البحر الكنعاني، كان الإغريق يراقبون بحسرة ما يجري على أرض كنعان، ويتلمظون غيرة وحسداً من رغد عيش الكنعانيين ولطافة حياتهم. في الوقت الذي كانوا يرهبون جانبهم فيما إذا راودتهم نفوسهم مس ذلك الرغد وهذا اللطف.

---

(18) – دبكة الإله بعل: هي الدبكة السورية، وهي في الأصل طقس ديني يقام تضرعاً للإله بعل كي يروي بمطره أرضهم التي يسمونها (أرض بعل) تمييزاً لها عن الأرض المروية بمياه الأنهار والينابيع. ولا زالت هذه التسمية مستعملة حتى أيامنا هذه، فنميز بين أرض بعلية وأرض مروية، ونقول أرض سقي وأرض بعل.

(19) – باخوس: هي التسمية الرومانية لإله الخمر والكرمة السوري الذي لم يعرف اسمه السوري حتى الآن.

(20) – داجون: هو إله القمح والحبوب عند السوريين، وهو والد الإله بعل. حيث كان السوريون يطلقون اسم داجون على الخبز. فنقول، مثلاً، في اللهجة المحلية السورية حالياً "لم أذق الدَّجَن حتى الآن".

فقد علمتهم تجاربهم المتكررة، أن الكنعاني هو، في حالة السلم، كالحمامة الوادعة، لا يؤذي أحداً، يفتح ذراعيه لكل من يريد أن ينهل من معارفه الواسعة، ومن خيراته الوافرة، التي منحته إياها أرضه الخصبة، وذكاؤه المتوقد، ونشاطه الذي لا يهدأ.

أما في حالة الحرب، فإنه يتحول إلى أسد جسور، يبطش بكل من يحاول التطاول على حياته وإنجازاته الحضارية الراقية، فيلقّن أعداءه درساً قاسياً، يجعلهم ينكفئون إلى حيث أتوا، يجرون وراءهم ذيول الخيبة والهزيمة.

ولقد ازدادت غيرة الإغريق وطمعهم، بعد أن وضعت الحرب بين آلهتهم أوزارها، حيث انتصر (زيوس) على والده (كرونوس)، إثر صراع مرير نشب بينهما.

فقد كان كرونوس سيداً لآلهة الإغريق مع زوجته (ريّا)، ينعم بسيادة مطلقة. إلى أن علم مصادفة بأن القدر[21] سوف يجعل من أحد أبنائه، في يوم من الأيام، سيداً للآلهة بعد أن يتمرد عليه ويهزمه.

كانت رغبة كرونوس الجامحة في البقاء على عرش آلهة الإغريق قد أعمت بصيرته وأفقدته صوابه، فصمم على مخالفة مشيئة القدر، وراح يبتلع أولاده فور ولادتهم، الواحد تلو الآخر، ليتجنب خطرهم عليه، فابتلع خمسة منهم، أما السادس، وهو زيوس، فقد كان حظه في البقاء على قيد الحياة أكبر من حظوظ إخوته.

فقد استطاعت ريّا والدته أن تخدع زوجها، وتقدم له حجراً كبيراً ملفوفاً بالقماميط[22]، على أنه وليدها السادس زيوس، فابتلع الحجر، مما سبب له آلاماً مبرّحة في أحشائه، وزاغت عيناه، ولم يعد يميز ما يدور حوله، فسها عن زوجته التي استغلت حالته، وأخذت وليدها سراً إلى جزيرة كريت، بعيداً عن عيون والده وأعمامه.

وعندما شب زيوس واشتد ساعده، فاجأ والده كرونوس، وأجبره على تقيؤ الحجر مع إخوته الخمسة، الذين سبق أن ابتلعهم، ثم أخذ الحجر ووضعه في مدينة ديلفي[23].

---

(21) – تخضع آلهة الإغريق لمشيئة القدر الذي يتحكم بمصائرها ومصائر البشر على السواء. على عكس الآلهة السورية التي تصنع القدر وتتحكم بمشيئته وبمصائر البشر.

(22) – القماميط: جمع، مفرده قماط، وهو الرداء الذي تلف الأم وليدها به.

(23) – ديلفي: مدينة مقدسة عند الإغريق.

انفجرت عقب ذلك حرب ضروس بين الطرفين، انضم فيها إلى زيوس بعض أعمامه، فرجحت كفته في الصراع، وانتصر على والده، بعد أن استخدم أسلحة فتاكة كالصواعق، والبروق، والزلازل، والوحوش العملاقة ذوات الأيدي المئة والرؤوس الخمسين.

بعد انتهاء الحرب، عاقب زيوس خصومه عقاباً شديداً، فقيدهم بالسلاسل الضخمة في باطن الأرض، على عمق يبعد عن سطح الأرض بعد الأرض عن السماء. وحكم على (أطلس) عمّه، بأن يحمل على ظهره إلى الأبد قنطرة السماء، والثقل الساحق للأرض، وعلى كتفيه العمود العظيم الذي يفصل السماء عن الأرض.

الإله أطلس ينفذ العقوبة التي فرضها عليه زيوس

بعد ذلك تقاسم زيوس الزعامة مع أخويه (بوزيدون) (وهاديس)، فأصبح بوزيدون إلهاً للبحر، وهاديس إلهاً للعالم السفلي، وصار زيوس كبير آلهة الإغريق وسيد السماء، ورب المطر، وجامع الغيوم، سلاحه الصاعقة، وقوته أعظم من قوة آلهة الإغريق مجتمعين، وبعد أن استتبت له الأمور اعتلى عرش الزعامة، واتخذ جبل (الأوليمب)[24] مكاناً لسكنه وسكن آلهته، وراح يوزع عليهم المناصب وينظم عملهم.

كان زيوس، فضلاً عن شراسته وقسوته، مزواجاً، متعدد العشيقات، يعيش قصص حب غريبة الأحداث، فيلجأ إلى مختلف الطرائق والأحابيل ليوقع بالمرأة التي يحب، ويسعى جاهداً، في الوقت نفسه، إلى إخفاء فعلته عن زوجته (هيرا)[25]، التي كانت دائمة الغيرة والشك في سلوكه تجاه النساء.

زيوس في إحدى حفلاته الماجنة مع آلهته في جبل الأوليمب

(24) – جبل الأوليمب: يقع في الشمال الشرقي من اليونان، وتقول الأساطير الإغريقية أنه مسكن الآلهة.

(25) – هيرا: راعية الزواج وحامية المتزوجات، تهرع إلى مساعدتهن في المخاض والولادة.

كانت هيرا تتعامل مع زوجها زيوس بما يتلاءم مع خصاله وطباعه، فهي لا تتوقف عن مراقبته، وتنهمك طوال وقتها في مراقبته وإحباط مخططاته مع عشيقاته، ونادراً ما كانت تسهو عن ذلك، فتمعن في معاقبة النساء اللواتي يميل إليهن، حتى لو أخضعهن عنوة، أو بالخديعة، فلا يهمها الأسلوب،، ولا تميز بين امرأة بريئة وأخرى آثمة، فهي تعاملهن معاملة قاسية على حد سواء، فغضبها يلاحقهن دائماً، ويلاحق أطفالهن أيضاً.

ولا تخلو معاملتها أولئك النسوة، في بعض الأحيان، من الخديعة والشرك، كما حصل للأميرة الجميلة (سيميلي)[26]، وكذلك للأميرة "إيو"[27].

فعندما أحب زيوس الأميرة "إيو"، خاف من غيرة زوجته وحاول أن يخفي فعلته عنها، فلفّ الأرض بغيمة داكنة كأنها الليل، ليخفي إيو ويخفي نفسه، ولكن هيرا بدهائها أدركت أن هناك سبباً لهذا الحادث الغريب، وشكّت بزوجها على الفور.

بحثت عنه في جبل الأوليمب فلم تجده، فانحدرت مسرعة إلى الأرض، وأمرت الغيمة بالانقشاع، ولكن زيوس كان سريعاً، فحول إيو إلى عجلة بيضاء، وأقسم لزوجته هيرا أنه لم يرَ هذه العجلة إلا الآن، عندما انبثقت لتوها من الأرض. ولكن هيرا لم تصدق كلمة واحدة مما قاله، وتصرفت بمكر ودهاء، وتظاهرت بأنها صدقته، وقالت له إن هذه العجلة جميلة جداً، وأنه سيقدمها هدية لها.

ندم زيوس على فعلته، وأدرك أن أمره سينكشف إذا ما رفض طلب زوجته، فما كان أمامه سوى النزول عند رغبتها، وإعطائها العجلة.

وضعت هيرا العجلة البيضاء تحت مراقبة (آرغوس)، الإله الذي يملك مئة عين، بعضها ينام، وبعضها الآخر يبقى متيقظاً حارساً، فتحولت إيو إلى حالة من البؤس والشقاء، جعلتها تهيم بوجهها في أنحاء الأرض، هاربة من ملاحقة هيرا التي لا تنتهي، فتركض كوحش مذعور يقفز مقيداً، وتعجز حتى عن التقاط أنفاسها لتأكل من عشب الأرض، أو تشرب من مياه السواقي الآسنة، بعد أن كانت أميرة جميلة.

---

(26) – سيميلي: هي إحدى بنات قدموس كما سنرى.

(27) – يسمى البحر الفاصل بين اليونان وجنوب إيطاليا بالبحر الإيوني (Ionian Sea) نسبة إليها.

كانت صدمة زيوس كبيرة بإيو وبما أصابها، فانزوى في جبل الأوليمب، يكابد اليأس والملل، ويمضي أيامه ولياليه مستلقياً متكاسلاً، يحاول أن يمتع نفسه بمرأى (الجذّابات) وهن يرقصن على أنغام قيثارة (أبولو)[28]، ويُطرب أذنيه بالاستماع إلى (الميوسات)[29] وهن يصدحن على تلك الأنغام، محاولاً بذلك أن يجد السلوى عما هو فيه.

إلا أن هذه المحاولات لم تجْدِه نفعاً، ولم تُدخل البهجة إلى نفسه، فهو لا يسعد إلا بحسناء رقيقة تجالسه مضجعه في قمة جبل الأوليمب، فكان شارد الذهن دائماً، ساهياً عما يدور حوله من عزف وغناء ورقص، فيلجأ إلى مراقبة الأرض من قمة جبل الأوليمب، ويتسلى بمشاهدة أحداثها هنا وهناك.

***

ذات يوم، وبينما كان زيوس يراقب الأرض، وصل به المطاف إلى الجانب الآخر من البحر، إلى سوريا، فلاحظ أن هناك حالة من الصخب تعم ساحلها، إلا أنه، لسهوه وشرود ذهنه، لم يدرك مغزى ما رأى، فأومأ إلى أبوللو بأن يتوقف عن العزف وسأله:

– ما الذي يجري عند هؤلاء القوم يا أبوللو؟.

– إنهم يستعدون للاحتفال بعيد قيامة إلههم أدون من الموت.

– أدون؟. آه ... يقولون إنه فتىً وسيم، جميل المحيّا، قوي البنية، ويقولون أيضاً أنه يمنح شعبه الخصب والخير.

يصمت قليلاً ثم يتابع بشيء من الاستغراب:

– ولكن! كيف يموت وهو إله؟.

---

(28) – أبوللو: هو أحد أبناء زيوس، ورب الموسيقا والغناء عند الإغريق، ويعرف أيضاً بأنه رب الصحة والطب بعد أن أضاف الإغريق إليه اسم (أسمونيوس) أي (أشمون، إله الصحة والطب والشفاء عند السوريين) ليصبح اسمه مركباً (أبوللو أسمونيوس).

(29) – الجذابات والميوسات: هن من بنات زيوس، وربات الرقص والغناء عند الإغريق، مهمتهن إمتاع الآلهة بالرقص والغناء.

– إنه يموت كل عام، ثم تهبط عشيقته عشتار إلى عالم الأموات وتنقذه من الموت.

– يبدو أنها تحبه كثيراً.

– أجل، ويا لها من امرأة، إنها آية في الحسن والجمال، تتدفق أنوثة ورقّة، وهي فوق كل ذلك، عذراء دائماً، تقطر عذوبة، ولكن...

توقف أبوللو عن متابعة كلامه عندما لاحظ أن زيوس يهز رأسه ويهمّ بالكلام، وكأنه يريد أن يقول شيئاً دون أن يتلفظ به، أما أبوللو فقد حاول أن يخفي ابتسامةً لا تخلو من الخبث وقال:

– بماذا يفكر سيدي، إن عينيه تقولان شيئاً، وصمته يقول شيئاً آخر، فهلاّ تكرم سيدي وأطلعني على ما يجول في خاطره، علني أنفع في شيء؟.

قال زيوس وقد لمح ابتسامة أبوللو:

– لا، لا شيء، ولكن قل لي ما الذي تلمّح إليه بابتسامتك الخبيثة يا أبوللو؟.

– ولكن أرجو ألا أُثير غضب سيدي إذا ما بُحت له بحقيقة ما يجول في خاطري.

– لا، لا يا أبوللو، قل ولا تبالي.

– ولكن...

لم يكمل، فقال له زيوس بنبرة متوترة وقد ضاق به ذرعاً:

– ما بك يا أبوللو.. أطلب منك الكلام فلا تتكلم!؟.

– إذاً.. هلا أعطيتني الأمان يا سيدي.

أجابه زيوس وقد بدأ صبره بالنفاذ:

– قل ما تشاء يا أبوللو ولك الأمان.

ابتسم أبوللو قليلاً، وقال بعد أن استجمع جرأته:

– إن حالك يا سيدي كحال العشاق، يريدون دائماً سماع ما يريحهم، ويبعث الأمل في نفوسهم.

– ماذا تقصد يا أبوللو؟.

ابتسم أبوللو ولم يجب، عند ذلك أدرك زيوس أن ما يجول في خاطره أصبح واضحاً لأبوللو، فقال له بمزيد من التحبب والإعجاب:

– حقاً إنك أكثر أبنائي ذكاءً وشفافية... فهل تقصد عشتار؟.

عشتار ... إلهة الحب والجمال والخصب عند السوريين

أجاب بلهجة الفائز:

– وهل أقصد غيرها يا سيدي؟...

قال زيوس على الفور، دون أن يترك لأبوللو فرصة متابعة كلامه:

– ومن يجرؤ على الاقتراب من عشتار، إن قوتها كافية لردع كل من يحاول حتى النظر إليها.

استغرب أبوللو:

– إني أفهم يا سيدي أن يكون الإله قوياً، ولكن كيف لعذراء، توصف بالعذوبة والرقة، أن تمتلك قدراً من القوة تجبر زيوس أن يحسب حسابها؟.

فابتسم زيوس بثقة العالم الخبير وقال:

– على الرغم من أنك فنان وموسيقي، إلا أنك قليل الخبرة بالنساء وأحوالهن، وهل هناك ما يمنع اجتماع القوة مع الرقة والعذوبة عند المرأة؟ فالجمال شيء والقوة شيء آخر.

ازداد استغراب أبوللو وقال:

– ولكنك زيوس، سيد العالم والمنتصر دائماً!.

– أجل، ولكن عشتار ليست وحيدة في تلك البلاد، إنها محصنة ومحمية بعدد من الآلهة الأقوياء، خصوصاً عشيقها أدون، لذلك فإن الاقتراب منها هو ورطة لا تخلو من العواقب الوخيمة.

صمت زيوس قليلاً ثم تابع بلهجة قوية مصطنعة، محاولاً استعادة ما هدر من كبريائه جراء ما أبداه من عجز أمام أبوللو وقال:

– صدقت يا أبوللو، فأنا زيوس سيد العالم والمنتصر دائماً، والجميع في جبل الأوليمب يعلم أنه لا تمنعني الصعاب، مهما بلغت، من الوصول إلى ما أريد، ألم أنتصر على كرونوس ذلك الانتصار المدوي، الذي لا نزال ننعم بنتائجه حتى الآن؟.

وفي هذه الأثناء، كانت (أفروديت)[30] تنصت إلى الحديث الدائر بين والدها وأبوللو، وقد لاحظت بوضوح التصنع في كلام والدها، فهي تدرك أكثر من غيرها خطورة الاقتراب من عرين عشتار، فأشفقت على والدها وصممت على إنقاذه مما هو فيه، بما تملك من قدرة كبيرة على اللعب بأوتار القلوب، وخبرة بالنساء وطبائعهن. فتوجهت إلى زيوس، وهي تحاول إخفاء ابتسامة خبيثة، وقالت:

– هلاّ استمع أبي وسيدي إلى ما أقول؟.

---

(30) – أفروديت: ربة الحب والجمال عند الإغريق، وهي مقتبسة عن عشتار السورية ولكنها تختلف عنها في بعض الصفات كالمكر والخفة والمخادعة.

وبلهفة من يبحث عن مخرج مما وقع فيه أجابها ملاطفاً:

– قولي يا أفروديتا، فعسى أن يكون في ابتسامتك ما يريح قلبي.

– قلوبنا جميعاً لا تساوي قلب سيدي.

– تكلمي، قولي ما عندك بسرعة يا أفروديتا.

– حسناً، إذا كانت محاولة الوصول إلى عشتار محفوفة بالمخاطر الكبيرة، فإن الحصول على فتاة من صنع عشتار، سيكون أقل خطورة، وبذلك يحقق والدي جزءاً من حلمه بالحصول على فتاة تشبه عشتار.

ابتسم زيوس مستبشراً، وقد شعر بأن أفروديت تضمر أمراً يسرُّ قلبه، فقال لها مداعباً:

– ماذا تقصدين يا أفروديتا؟ يا من تضحكين بعذوبة، وتخادعين الجميع، آلهة وبشراً، وتمكرين بهم، وتسرقين حتى ذكاء الحكيم وفطنته، وتسخرين في النهاية ممن توقعينه بأحابيلك، هلاّ أرحت قلبي وأخبرتني من هي هذه الفتاة؟.

– إن التعامل مع الجمال والحب هو صنعتي ووظيفتي يا سيدي، فأنا أعرف كل حسناوات العالم، وأعرف أيضاً أن أجملهن على الإطلاق هي أوروبا، تلك الأميرة الكنعانية التي تعيش في صور.

رفع زيوس حاجبيه وقال:

– تقولين أميرة، فهل هي أميرة أيضاً؟.

– أجل، إنها الأميرة الفاتنة أوروبا، ومن لا يعرف أوروبا، ابنة أجينور ملك صور، الكنعانية المدللة، ابنة الستة عشر عاماً، التي ذاع صيتها في كل الأرجاء.

ازدادت رغبة زيوس بمعرفة المزيد عن الأميرة أوروبا:

– صفيها لي يا ابنتي العزيزة، هل هي بجمال "إيو"؟.

– وهل تمكن مقارنة "إيو" بأوروبا يا سيدي؟!، أوروبا هي الأجمل على وجه الأرض، وهي إحدى تجليات عشتار.

– ماذا تقولين!؟.

– أجل يا سيدي، لقد استخدمت عشتار في صنعها كل خبرتها التي اكتسبتها عبر الدهور:

فمن حقول الذرة الناضجة في سهول كنعان صنعت شعرها الخرنوبي الأملس.

ومن قمم الحرمون رفعت جبينها الشامخ.

ومن حنطة داجون لونت بشرتها.

أما ساقاها فمن ساقي غزال شارد صنعتهما.

ومن سيوف الشام رسمت حاجبيها.

إن زقزقة العصافير في غابات الأرز لا تضاهي صوتها.

أما ثغرها الجميل فمن حبات العنب كونته.

فالربيع يذوي حين يرى تفتح ابتسامتها...

عند ذلك انتفخ صدر زيوس، وجحظت عيناه، وكادت تخرج من جوفها، وهو يستمع إلى براعة أفروديت في وصف أوروبا، فزفر زفرة قوية ارتجّت لها قاعة العرش، وقال بصوت عالٍ:

– أحضروا لي كمية من ذلك السائل السحري القادم من بلاد كنعان، والذي ينقل شاربه إلى عالم الأحلام، فأنا أريد أن أحلم.

فهمت أفروديت ما يريده زيوس، فأوعزت بإحضار النبيذ، ثم أردفت على الفور على كلام والدها، وهي تمعن باللعب على أوتار قلبه:

– إنه النبيذ يا سيدي، اشرب منه كما تشاء، لأنك لن تشربه بعد الآن.

– ولماذا يا أفروديت!؟.

– لأنك ستمسي مخموراً طوال الوقت من جمال أوروبا.

قام زيوس عن عرشه وصاح ثانية:

– أين النبيذ ... أين النبيذ؟.

واتجه نحو "نافذة الأرض"[31] وأخذ يراقب أرض كنعان بلهفة واهتمام، باحثاً عن أوروبا، وما إن وجدها حتى انتصب على قدميه كالملسوع، ووقف مذهولاً أمام جمالها الصارخ، وهي

---

(31) – نافذة الأرض: نافذة في جبل الأوليمب يراقب زيوس الأرض من خلالها.

تمرح مع صديقاتها في حديقة قصر والدها، على شاطئ صور الجميل، فراح يعب المزيد من النبيذ بجنون، إلى أن وقع على الأرض مخموراً لا حراك به، فأطلقت أفروديت على الفور سهماً من سهامها إلى قلبه، فجُنَّ بحب أوروبا.

* * *

{{ الإله زيوس يخطط لاختطاف الأميرة أوروبا }}

في هذه الأثناء كانت هيرا زوجة زيوس في مخدعها، منهمكة بمطاردة "إيو" العجلة البيضاء ومعاقبتها، وهي مطمئنة على زوجها، الذي انزوى في جبل الأوليمب يكابد الحزن لما أصاب "إيو"، ولم تكن تدري أنه بدأ يحيك خيوط قصة حب ستخلدها بلاد الإغريق والقارة التي وراءها إلى الأبد.

صحا زيوس من سكرته، وأرسل على الفور في طلب رسوله الخاص "هرمس"[32] وقال له:

– امضِ إلى بلاد كنعان، وأتني بأخبار تلك العصفورة الجميلة التي تدعى أوروبا، فأنا أريد أن أختطفها وأجعلها زوجة لي، وأخلد اسمها إلى الأبد.

استهجن هرمس كلام زيوس وقال متهكماً:

– هل ستخلدها يا سيدي كما خلدت إيو التي أحببتها، فجعلتها عجلة منبوذة تكابد الشقاء على الأرض، فإلى أي شيء ستحول أوروبا هذه المرة؟.

اغتاظ زيوس من جرأة هرمس وتطاوله على العزة الإلهية، وكاد أن ينزل به القصاص، لولا أن كان محتاجاً إليه في تدبير أمر اختطاف أوروبا. فابتلع غيظه وخاطبه على مضض:

---

(32) – هرمس: الرسول الخاص لزيوس، ويتميز بالحركة الرشيقة والسريعة والقدرة الكبيرة على التخفي والخداع.

– سأغض الطرف عن تطاولك يا هرمس، وأؤكد لك أن إيو لن تبقى هكذا إلى الأبد، بل سأخلد اسمها هي الأخرى، ولكن ليس بالقدر الذي سأخلد فيه اسم أوروبا. وستعرف فيما بعد أنني أقوم بما لم يقم به والدي كرونوس من واجبات تجاه الأرض ورعيتنا فيها[33].

– إذن لماذا تختطفها يا سيدي؟ وهل يليق الاختطاف بمقام الآلهة!؟.

– إن اختطافها أفضل من المجازفة بكرامتي وخطب ودها، لأنني على يقين من أن كبرياءها يجعلها تفضل بني قومها على أي غريب مهما علا شأنه.

– ولكنك لست كأي غريب يا سيدي، إنك رب الأرباب وسيد العالم.

هزّ زيوس رأسه وقال في سره إن هرمس لا يعرف الكثير عن طبائع الكنعانيين، وأجابه بهدوء مصطنع:

– إنك لا تعرف الكثير عن هؤلاء الكنعانيين، إنهم قوم آثمون.

– ماذا! وهل يعصون مشيئة الآلهة؟.

– لا يا هرمس، فهم على وفاق تام مع آلهتهم.

– بماذا، إذن، هم آثمون يا سيدي؟.

– إنهم آثمون بكبريائهم وتعاليهم، إنه الإثم الكنعاني الذي ذاع صيته في كل اصقاع الدنيا، فهم أعلى مرتبة من البشر، وأدنى من الآلهة ... إنهم أنصاف آلهة[34].

صمت زيوس قليلاً بعد أن رأى دهشة هرمس ثم استأنف كلامه بشيء من العصبية:

– إذن، لا تضيع الوقت يا هرمس، فهو ثمين بالنسبة لي، وافعل ما قلته لك، ودعنا نفكر بحيلة لاختطافها، فما لا يؤخذ بالرضى يؤخذ بالقوة، وما لا يؤخذ بالقوة يؤخذ بالحيلة.

---

(33) – تقول الأسطورة الإغريقية أن معاناة إيو تنتهي بعد مسيرة طويلة في الأرض تصل في نهايتها إلى نهر النيل في مصر، حيث يعيدها زيوس إلى شكلها البشري ويتزوجها، ويكون هرقل من سلالتها، كما يسمى البحر الواقع بين اليونان وإيطاليا، جنوب البحر الأدرياتيكي، بالبحر الإيوني نسبة إليها.

(34) – كان المؤرخ الإغريقي هيرودوتس يطلق على سوريا الطبيعية اسم (بلاد أنصاف الآلهة).

انطلق هرمس في مهمته بسرعة الخاطر، واتخذ لنفسه هيئة رجل كنعاني، يتاجر بالأرجوان، ليبيعه في بلاد الإغريق، وراح ينقل في رحلاته المتكررة والسريعة إلى أرض كنعان أخبار قصر الملك أجينور والأميرة أوروبا إلى سيده زيوس.

وكان زيوس بدوره يملي عليه ما يتوجب القيام به، فأوحى إلى أوروبا بحلمها المعهود كل ليلة، وجمّل لها شقائق النعمان في حديقة القصر، ليبعث الرغبة في قلبها بالبقاء فيه يوم العيد، إلا أن أمره كاد أن يفتضح لولا أن تنبه إلى رحلة الوزير إلى بابل، فأوعز إلى هرمس بأن يحول دون وصوله إليها:

– ولماذا أمنعه من الوصول إلى بابل يا مولاي؟.

– ليس الخطر في وصوله إلى بابل فحسب، بل في وصوله إلى برغوشا، ذلك الكاهن الحكيم، ذي المعرفة الواسعة في شؤون البشر والآلهة، والذي يشكل خطراً على ما نقوم به، فيما لو اطلع على ما يحصل للأميرة أوروبا.

– أ إلى هذا الحد يشكل هذا الكاهن خطراً علينا!؟.

– لا بل أكثر من ذلك، فكن حذراً وأسرع في عملك، لأنني سأختطف الأميرة أوروبا صباح عيد قيامة إلههم أدون.

– ولماذا هذا اليوم بالذات يا سيدي؟.

– في هذا اليوم سيكون قصر الملك أجينور خالياً، باستثناء أميرتي الحسناء أوروبا، وبعض من صديقاتها وخدمها وحراسها، فقد وضعت خطتي بإحكام، ولن تعوزني الحيلة لاختطافها، فأنا زيوس.

***

اكتملت خيوط الحيلة، بعدما تمكن هرمس من عرقلة مهمة موخو بالسفر إلى بابل، وتأخير عودته إلى صور قبل يوم العيد.

جلس زيوس في أثناء ذلك يحتسي النبيذ بشكل جنوني، ومزاج عصبي متوتر، وأخذ يحملق بعينيه من نافذة الأرض، ويراقب قصر الملك أجينور في صور باهتمام بالغ، ويتحرق شوقاً لتنفيذ ما عقد العزم عليه.

وهكذا إلى أن جاء صباح "اليوم الأخير"، حيث اطمئن عندما شاهد موكب الملك أجينور، من نافذة الأرض، يغادر صور إلى جبيل، إلا أنه عاد وانقبض من جديد، فهو لم يكن على يقين بأن الأميرة قد بقيت في القصر.

وفي هذه اللحظة دخل إليه هرمس، ودون أن يشيح بعينيه عن النافذة، بادره على الفور بسؤاله عن الأميرة أوروبا، ولما أعلمه أنها بقيت في القصر، انفرجت أساريره وأيقن أن الفرصة قد اقتربت كثيراً، ولم يبقَ أمامه سوى يوم واحد لتنفيذ فعلته، فأخذ ينتظر مرور ذلك اليوم بفارغ الصبر.

استدار عن النافذة وأومأ إلى أبولو بأن يبدأ العزف، فراح أبولو يتفنن في عزفه على قيثارته التي لا تفارقه، فامتلأ فضاء القاعة بأعذب الألحان، وبأصوات "الميوسات"، وهن يصدحن بأجمل ما لديهن من غناء، في الوقت الذي راحت "الجذابات"[35] تتمايلن أمام زيوس بأمتع الرقصات، وهو يعب من النبيذ الشيء الكثير، محاولاً أن يبعد عنه شعوراً ثقيلاً بطول ذلك النهار، ولكن عبثاً.

– إنه أطول يوم في حياتي يا هرمس، ليتني استطيع دفع الزمن إلى الأمام، لأمحو هذا النهار اللعين من الوجود.

– صبراً يا سيدي، فكل شيء على يرام.

زفر زيوس زفرة قوية، وأخذ يتجول في أرجاء المكان، وهو يغالب شعوراً رهيباً بالفراغ والوحدة، على الرغم مما يجري حوله، ومن الهرج والمرج الذي يملأ أروقة جبل الأوليمب، وما يشاهده من حركة لا تهدأ في أرض كنعان، تملأ الفضاء ضجيجاً وصخباً. كل هذا لم يكن يساعده على التخلص من القلق والتحفز، فهو لا يشعر إلا بما يدور في رأسه.

(35) – الميوسات والجذابات: هن مغنيات وراقصات جبل الأوليمب مهمتهن الدائمة إمتاع زيوس.

{{ اختـــطاف الأمـــيرة أوروبـــا }}

غابت شمس ذلك النهار، وأخذ الليل يطوي صفحة ذلك اليوم الطويل، وتحفز زيوس للانقضاض على فريسته، واستأنف المراقبة من نافذة الأرض، فوجد أن الفرصة قد حانت، فالجميع قد ذهبوا إلى جبيل للاحتفال بالعيد، ولم يبقَ في القصر سوى أوروبا وحاشيتها، وأحد الكهنة الذي سيتولى رعاية الاحتفال بالعيد عند الصباح.

أخذت الأميرة أوروبا ومن معها بالتضرع والصلاة، ومراقبة نجمة عشتار في جو من الألفة والود، ولكنها كانت متعبة، بسبب الإجهاد الذي أصابها من ذلك الحلم في الليلة السابقة، فغلبها النعاس واستسلمت للنوم، واستسلم له من معها أيضاً.

وعند الفجر تراءى لها حلمها المعهود، فأفاقت ثانية ولكنها كانت تشعر، على غير عادتها، بالنشاط والحيوية، فأيقظت صديقاتها ليرافقنها إلى الحديقة لجمع الورود.

اختارت أوروبا، من بين أثوابها الجميلة، ثوباً أرجوانياً مطرزاً بخيوط الذهب، وتحلقت صديقاتها حولها، يجمّلنها ويعطّرنها بألطف أنواع العطور، حتى امتلأ هواء مخدعها بعبق تلك الروائح المنعشة المثيرة، وأخذت إحداهن تسرّح لها شعرها الحريري، وتجدله على شكل ضفائر غليظة، وكأنها حبال مجدولة لمركب كنعاني.

وبعد أن انتهين من الاعتناء بالأميرة، خرجن جميعاً إلى الحديقة حيث لاح الصباح، ورحن يقطفن الأزهار ويتنقلن كالنحلات من زهرة إلى زهرة مرحات صاخبات، يضعن الأزهار في سلالهن الذهبية ذات النقوش الجميلة، فجمعن الكثير من النرجس الأبيض، والجلنار القرمزي والفل والسوسن والوردة الدمشقية بألوانها المتنوعة[36] والياسمين والبنفسج.

ولكن أوروبا، المتألقة بين صويحباتها تألق عشتار بين نجوم السماء، لم تكن تقطف غير الورود القانية، من شقائق النعمان وغيرها. ولما انتهى قطاف الزهور، أخذت الفتيات يرقصن

---

(36) – الوردة الدمشقية: هي الوردة الجورية.

لاهيات مغتبطات، فترددت اصواتهن بعيداً في الحقول الخضراء، وفي البحر الواسع، وغطت همساته الهادئة الرقيقة.

لم تهنأ أوروبا طويلاً بهذا اللهو، فقد جاء زيوس لاختطافها، ولما كان يعرف رقتها وعذوبتها، فقد خشي أن يثير خوفها بمنظره وجبروته، وفضل أن يكون حذراً متأنياً، فتمثل لها على هيئة ثور بديع المنظر، لم تشهد مثله عين، لا في المرابض ولا في الحقول، ثور يفوق ثيران الأرض جمالاً، يتألق جلده كالذهب، ويتلألأ جبينه بقرص مدور كالقمر، أما قرناه الذهبيان فكانا معقوفين كالهلال أول ظهوره من أحضان أشعة شمس المغيب القرمزية.

أخذ الثور الجميل يسرح فوق المرج الأخضر في الحديقة، ويتقدم من الصبايا بخطوات متأنقة رقيقة، لا تكاد تلمس العشب، وكأنه أمير مسحور، حولته إحدى الساحرات إلى ثور فقد قدرته على النطق، فاستعاض عنها بحركات جذابة، تقول دون أن تتكلم. فلم تهلع الفتيات لرؤيته، بل أخذن يقتربن منه، ويجمعن الأعشاب من حوله ويقدمنها له، ولكنه لم يكن يأكلها، بل كان يقوم بالمزيد من الحركات الجذابة، ورحن يلمسنه بلطف وحنو، فاقترب من الأميرة أوروبا، وراح يلحس يديها ويتململ أمامها بغنج وحياء، وكانت أنفاسه محملة بعبير "الأمبروزيا والنكتار"[37] حتى امتلأ فضاء الحديقة بروائحها العطرة.

مسحت أوروبا بيديها الناعمتين وبر ظهره الناعم وتحت رقبته، وأحاطت رأسه بذراعيها وقبّلته، فاصدر خواراً موسيقياً تذوب له القلوب، فيه الكثير من التودد والحب، يعجز الناي أن يصدر أجمل منه، وركع عند قدميها وكأنه يطلب منها أن تعتلي ظهره العريض، فدعت أوروبا رفيقاتها ليمتطينه معها قائلة:

(37) – الأمبروزيا والنكتار: طعام وشراب آلهة الإغريق.

– لا شك أنه قادر على حملنا جميعاً، إنه رقيق جميل، لطيف يسر النظر، انظروا إليه فهو لا يشبه ثوراً، إنه إنسان حقيقي طيب ولكنه لا يتكلم. واعتلت أوروبا ظهره العريض ضاحكة مستبشرة، ولما همّت الصبايا بالركوب إلى جانبها، نهض فجأة، وانطلق مسرعاً نحو البحر وقد فاز بمبتغاه.

الثور ينطلق سابحاً في البحر وهو يحمل أوروبا على ظهره

أطلقت الصبايا صرخات مدوية ملتاعة، بينما مدّت أوروبا نحوهن ذراعين مستغيثتين، ولكنهن كنَّ عاجزات عن إغاثتها، فقد انطلق الثور الذهبي مسرعاً يسابق الريح، وألقى بنفسه في البحر دون أن يغوص فيه، بل ظل على صفحة الماء، يمخر عباب الأمواج التي أخذت تتباعد، مفسحة له السبيل، فيغدو سطح البحر رقيقاً لطيفاً، وكان رذاذ الماء ينزلق عن ظهر الثور كحبات الماس.

خرجت النيريدات[38] على ظهور الدلافين من أعماق البحر، وتحلقن حول الثور ولحقن به سابحات. كما ظهرت التريتونات[39] تنفخ بأبواقها. وخرج الإله بوزيدون بنفسه محمولاً على

(38) – النيريدات: ربات بحر صغيرات من بنات بوزيدون ويسمين حوريات البحر.

(39) – التريتونات: أرباب بحر صغار من أبناء بوزيدون ينفخون بالأبواق، وبوقهم صدفة كبيرة، ويسمون بوّاقي البحر.

مركبته، وفي يده خطّافه مثلث الشعب، ومضى في مقدمة الموكب، يلامس الأمواج بخطّافه، ليهدّئ من تلاطمها، مفسحاً في المجال أمام أخيه الأعظم.

***

استقرت أوروبا على ظهر الثور، وفزعت من تلك المخلوقات العجيبة التي رأتها، وخافت من المياه المحيطة بها من كل جانب، فأمسكت أحد قرني الثور بيدها، وثنت باليد الأخرى طرف ثوبها الأرجواني المذهب، كيلا تبلله المياه، ولكن عبثاً ما تفعله، فالبحر هادئ، هامس الصوت، يعبث هواؤه بضفائرها الطويلة، ويداعب منديلها الرقيق، وهي أسيرة رعب لا يوصف، فقد غاب عن ناظرها شاطئ صور، وتلاشى في زرقة الأبعاد، فلم يبق حولها غير البحر والسماء.

كان الحشد يتجه غرباً، ولدى وصوله قرب جزيرة قبرص، سار بمحاذاة شواطئها الجنوبية، وأصبح قبالة مدينة «بافوس»، حيث كانت جموع الشعب على الشاطئ، تحتفل بعيد قيامة أدون، وتلقي بسلالها وتماثيلها في مياه البحر[40].

أوروبا على ظهر الثور في عرض البحر

(40) – احتفالات مدينة بافوس: هي الأعظم بين احتفالات المدن القبرصية.

شاهد الناس الموكب من بعيد، فأخذوا يلوحون بأيديهم، ويهللون مبتهجين فرحين، ظناً منهم أنه موكب الملك أجينور، جاء ليشاركهم احتفالهم بالعيد، كعادته بين عام وآخر، فتحفزوا للقائه واستقباله، ولكن فرحتهم تلاشت عندما اقترب الحشد من شاطئ المدينة، وفوجئ الناس بسرعته الكبيرة، ومخلوقاته العجيبة، وأدركوا أن ما يرونه ليس موكباً بشرياً، بل حشداً غريباً لم يروا مثله من قبل، فانتابهم قلق شديد لأن الموكب قادم من الشرق، وتوجسوا من مصاب عظيم ربما يكون قد حل في وطنهم.

تابع الحشد إبحاره، إلى أن لاحت له جزيرة كريت من بعيد، فأيقنت أوروبا عندها أن الثور الذي تمتطيه ليس ثوراً حقيقياً، وإنما قد يكون إلهاً، فانتابها الخوف وقالت له:

– أرجوك أيها السيد، لا تتركني وحيدة في مكان غريب.

أجابها زيوس:

– اطمئني يا أميرتي الجميلة، أنت في أيدٍ أمينة... فأنا زيوس رب الآلهة، وما فعلته الآن هو بدافع الحب، فاحفظي هذا الجميل لأفروديت التي أرشدتني إليك، فأنت الأجمل على وجه الأرض، والأعرق نسباً، وها أنا ذا أرفع شأنك إلى مصاف الآلهة، وأخلد اسمك إلى الأبد، وأُطلقه على القارة التي تقع وراء جبل الأوليمب، فهي بلا اسم، ومن لا اسم له لا هوية له.

وهنا تذكرت أوروبا حلمها بعد أن نسيته لهول ما أصابها، فسخرت في قلبها من الكهنة والعرافين، لقد تحول حلمها إلى حقيقة، وأدركت أن المرأة السمراء في الحلم ما هي إلا قارة آسيا، موطنها الأصلي التي رعتها ونشّأتها وأرضعتها كأمها، وأن المرأة الشقراء هي تلك القارة التي لا اسم لها، والتي سيصبح اسمها "أوروبا" منذ الآن وإلى الأبد.

وفجأة، وعندما تذكرت أوروبا تلك المرأة الشقراء، تحول شعرها الخرنوبي إلى اللون الأشقر، وانقلب السواد في عينيها إلى زرقة فاقعة، وغدت بشرتها بيضاء محمرّة، بعد أن كانت حنطية اللون... فأصبحت الأميرة أوروبا... أوروبا.

نزل الموكب في جزيرة كريت، التي أحبها زيوس لأنها احتضنته منذ ولادته، عندما خبأته فيها أمه «ريّـا» بعيداً عن عيني والده كرونوس كي لا يبتلعه. وكان حراس الأوليمب والأعيان

والآلهة بانتظاره، فقد جاؤوا من جبل الأوليمب خصيصاً لاستقباله في الجزيرة، وأخذوا يزفونه إلى عروسه أوروبا، في جو من الفرح العارم بهذا الصيد الثمين.

وبعد أن انتهت مراسم الزفاف، غادر الجميع جزيرة كريت، وبقي زيوس وأوروبا وحيدين فيها.

***

{{ غضــب وتحفــز في صــور }}

أما في قصر الملك أجينور في صور، فقد ذهل الحراس للمفاجأة، ودب الحزن في قلوبهم، وأصابهم الهلع لهول الكارثة، ماذا سيقولون لملكهم؟ فقد اختطفت أميرتهم المحبوبة وعيونهم شاخصة إليها، وهم عاجزون عن فعل أي شيء لإنقاذها، فلم يَدُر في خلدهم أن ثوراً يمكنه أن يختطفها ويمضي سابحاً في البحر. فأرسلوا أحد الفرسان خفيفي الحركة إلى جبيل، ليخبر الملك بالأمر.

عاد الملك أجينور إلى صور مسرعاً، وأرسل على الفور سفينة في البحر، فجابته مدة ثلاثة أيام متتالية، دون أن تعثر على أثر للأميرة، فحزن الملك حزناً شديداً، وأخفقت كل المحاولات في التخفيف من حزنه، فقد كانت الأميرة أوروبا تزين قصره وتتباهى بها كل كنعان.

لكن الملك لم ييأس، بل اعتبر أن السفينة التي أرسلها إلى البحر، هي محاولة اولى سريعة للبحث عن الأميرة، فهو مصمم على العثور عليها وإنقاذها، مهما كلفه الأمر، فاستدعى أبناءه الثلاثة للتشاور في كيفية العثور على الأميرة، ولكنهم لم يستطيعوا احتمال المزيد من التشاور والبحث، فالوقت يمضي بسرعة والأميرة أوروبا في خطر، عند ذلك حزم الملك أمره وقال لأبنائه باقتضاب شديد:

– اذهبوا وفتشوا عن أختكم في كل مكان في الأرض، فلا يعودنّ أحد منكم إليّ بدونها، حتى ولو كلفكم ذلك حياتكم.

لم يكن الأمراء الثلاثة بحاجة إلى أي تحفيز للبحث عن أختهم، بل كانوا شديدي التصميم على العثور عليها بأي ثمن، حتى لو قدموا حياتهم مقابل إنقاذها، فهي تمثل شرفهم وشرف كنعان كلها، وهذا ما لا يتهاونون به في أي ظرف من الظروف.

***

اجتمع الأمراء الثلاثة فيما بينهم، ووضعوا خطتهم للبحث عن الأميرة، فاختص كل منهم بجانب منها يتناسب مع اختصاصه ومعرفته، فكانت حصة الأمير فينيق هي التفتيش في مناطق الساحل السوري والساحل الأفريقي والجزر المقابلة له، وكانت حصة الأمير كيليك هي البحث في مناطق الداخل السوري من منابع الفرات ودجلة إلى تخوم الصحراء فالبحر الشرقي عند مصب النهر.

أما الأمير قدموس فقد أصر على الاحتفاظ لنفسه بمهمة التفتيش في بلدان وجزر السواحل الشمالية للبحر الغربي، خصوصاً بلاد الإغريق، على ما يكتنف هذه المهمة من صعوبات ومخاطر، بسبب بدائية شعوب تلك المناطق، فهو يميل إلى الاعتقاد بأن أخته أوروبا لابد أن تكون في تلك البلاد. وهكذا فقد اتخذ كل من الإخوة الثلاثة طريقاً مختلفة عن الآخر للبحث عن الأميرة أوروبا.

توجه الأمير فينيق إلى البحر، وأنزل مراكبه فيه، وابحر غرباً، وراح يجوب في أنحائه، في رحلة طويلة شاقة، قام خلالها بالبحث في مختلف بلدان ومناطق السواحل الأفريقية، حتى وصل إلى مضيق أعمدة ملكارت[41] ولكن دون جدوى، فعاد إلى الساحل الكنعاني يفتش في مناطقه، حتى وصل شمالاً إلى منطقة أنطاكيا ولواء الاسكندرون، دون أن يجد أثراً للأميرة، فأراد العودة إلى صور، ولكنه خشي من توعد والده الملك، ولومه إذا هو عاد بدون أخته، فقرر الاستقرار، مع مرافقيه وبحارته وجنوده، في المنطقة الواقعة شمال مدينة صور حتى أنطاكيا ولواء الاسكندرون، وأسس مملكة سميت باسمه "فينيقيا".

---

(41) – مضيق أعمدة ملكارت: هو مضيق جبل طارق حالياً الذي يفصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي.

أما الأمير كيليك، الذي اتخذ طريق البر، فقد اتجه شرقاً حتى بلاد ما بين النهرين والبحر الشرقي، وبعد رحلة طويلة، لم يجد خلالها بارقة أمل في العثور على أخته. فغيّر وجهته إلى الشمال، باتجاه منابع دجلة والفرات، على سفوح جبال طوروس حتى خليج الاسكندرون دون فائدة، ولم يجرؤ هو الآخر على العودة إلى صور، فاستقر، مع مرافقيه وفرسانه وجنوده، في المنطقة الواقعة شمال فينيقيا الممتدة إلى البوابات الكيليكية، على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الغربي، غرباً، إلى منابع الفرات ودجلة شرقاً وشمالاً، وأسس فيها مملكة سميت باسمه "كيليكيا" وعاصمتها "طرسوس".

{{ قدموس يبحث عن الأميرة أوروبا في بلاد الإغريق }}

كان قرار الأمير قدموس هو التوجه في رحلته إلى بلاد الإغريق مباشرة، لأنه يميل في ظنه إلى أن أخته قد تكون في تلك البلاد، مستنداً في ذلك إلى خبرته في شؤون شعوب البحر الغربي وخصوصاً شعب بلاد الإغريق، إضافة إلى ما نقله الوزير موخو من بابل عن ملكها وعن كاهنها برغوشا حول أطماع الإغريق، فحزم أمره على هذه الصورة.

اختار قدموس لرحلته خمسة من الفرسان الأشداء المطيعين، وأنزل سفينته في البحر، وأبحر غرباً باتجاه جزيرة قبرص، علّه يحصل من مواطنيه فيها على ما يساعده في توجيه رحلته في البحث.

***

وصل قدموس إلى قبرص، وسار بمحاذاة ساحلها الجنوبي، فوصل إلى مدينة بافوس، واستقبله سكانها استقبالاً حسناً، فهو أميرهم المحبوب، بن أجينور ملك صور وقبرص.

سأل قدموس عن أخته فأبلغه السكان بما شاهدوه صبيحة يوم العيد، وكيف أن الحشد ذا المخلوقات العجيبة، قد مر بالقرب منهم، واتجه غرباً، دون أن يتمكنوا من إدراك ما رأوا، أو فهم حقيقة الحشد.

تدافع السكان على الأمير قدموس، يعرضون عليه مساعدتهم في البحث عن الأميرة، وتطوع الكثيرون منهم لمرافقته. إلا أنه رفض طلبهم بلطف، وشكرهم على مشاعرهم الوطنية النبيلة.

بعد ذلك تابع قدموس إبحاره غرباً، باتجاه جزيرة كريت، وأخذ يسأل فيها عن أخته دون جدوى، فقرر الإبحار شمالاً، إلى الجزر الإغريقية المتناثرة في بحر إيجة، وطاف فيها كلها يفتش ويسأل، ولما أعياه البحث والسؤال، قرر أن يستريح قليلاً، ويلجأ إلى التفكير بروية فيما حصل عليه من معلومات ودلائل حتى الآن، علّه يهتدي إلى طريقة أنجع في تنفيذ مهمته، والعثور على أخته الأميرة، فاتخذ من إحدى الجزر الصغيرة مكاناً لاستراحته.

كان سكان هذه الجزير قوماً طيبين مسالمين، فنصحوه بالتوجه إلى "ديلفي"، المدينة الإغريقية المقدسة، ففيها معبد للإله أبوللو خاص بالتنجيم والعرافة، فتوجه إليها.

كانت تقيم في ذلك المعبد كاهنة طاعنة في السن، أمضت حياتها في خدمة المعبد، تتنبأ بأحداث الماضي والمستقبل بإيحاء من أبوللو، حتى ذاعت شهرتها في كل بلاد الإغريق، وأصبحت تنبؤاتها أقوالاً مقدسة.

كانت الكاهنة ترتدي ثوباً أسود فضفاض، ذا أكمام واسعة، يخفي جسدها حتى قدميها، وتضع على رأسها ملاءة سوداء طويلة، مدلّاة على ظهرها، وتجلس في فناء المعبد الرطب، على مقعد ذي أرجل ثلاث، يرتكز على صخرة موضوعة فوق فوهة في الأرض، تصل إلى أعماق سحيقة، تتصاعد منها أبخرة وروائح مثيرة واخزة، تتلقى منها الوحي الذي يمدها به ابوللو.

فإذا أرادت استقبال الوحي، كي تنبئه لأحد زوارها، ترفع ملاءتها المدلاة على ظهرها، وتسدلها على وجهها لتصل إلى الأرض، فتغدو مكسوة بالسواد بشكل شبه كامل، فلا يظهر منها سوى الأجزاء السفلية من أرجل المقعد المهترئ، وقدميها الحافيتين المتشققتين كالأخاديد، وقد تجمعت فيها أوساخ السنين، وأصابعها الرفيعة المعقوفة، ذات الأظافر الطويلة المقوسة

والمتسخة، لتبدو كتمثال أسود لا حياة فيه، جاثم فوق صخرة اكتسبت لونها الأخضر المصفر لكثرة الطحالب النامية فوقها، بسبب الرطوبة الناجمة عن تلك الأبخرة المتصاعدة من فوهة فناء المعبد، الذي تنتشر في زواياه أيضاً طبقة من تلك الطحالب.

عندها يسود المكان كله صمت ثقيل، تخترقه، بين الفينة والأخرى، تمتمات غير مفهومة، تصدر من تحت ذلك الثوب الأسود، المشبع بعبق تلك الروائح والأبخرة، إلى أن تصل إلى حالة الغيبوبة الكاملة، تتلقى عندها الوحي من أبولو لتنبئه لزائرها.

وقد كانت الكاهنة تتقبل من زوارها الهدايا والأعطيات المصنوعة من الذهب والفضة، فتحرص عليها وتحفظها بكثير من الحرص والقداسة، إلى أن امتلأت أركان المعبد بالهدايا.

وصل قدموس إلى ديلفي، وقد أحضر معه، كما نصحه سكان الجزيرة، كأساً ذهبية جميلة هدية للكاهنة، وتوجه مع فرسانه إلى المعبد، وهم يتبادلون أطراف الحديث على ظهور جيادهم المتعبة، بشيء من الاسترخاء، لشدة ما أصابهم من عناء في حلّهم وترحالهم، تُخَيّم عليهم حالة من التوجس والترقب لما ستكون عليه نبوءة الكاهنة عن مصير الأميرة أوروبا.

أما قدموس فكان هاجسه من نوع آخر، رأى أن يبوح به لرجاله عندما أصبحوا على مقربة من المعبد، فسألهم عما إذا كانت الكاهنة ستنبئهم بالحقيقة أم لا.

نظر إليه فرسانه بشيء من الاستغراب وقال أحدهم:

– ولماذا لا تنبئنا الكاهنة بالحقيقة يا سيدي!؟.

أجابه قدموس:

– ربما تقوم بتضليلنا.

– ولماذا يا سيدي؟.

أجاب قدموس محاولاً توخي الدقة في كلامه:

– أقول ربما تضللنا لأننا غرباء، فهي ستدرك ذلك بسهولة فور سماعها لكنتنا في التحدث بالإغريقية، كما هي حالنا كلما تحدثنا مع أحد في هذه البلاد.

واستأنف:

– ولكن دعونا نمضي إلى النهاية، لنرى ما سيؤول عليه الحال، فلكل شأن شأنه.

ترجّل الفرسان عن صهوات جيادهم، ودنوا من باب المعبد، يتقدمهم قدموس، ولما أصبح عند باب المعبد وهمّ بالدخول، صدمته تلك الروائح الواخزة التي تفوح منه، فأحجم قليلاً، ولكنه كابر على نفسه وهم بالدخول ثانية، بعد أن أخذ شهيقاً عميقاً وملأ صدره بالهواء، عندها انفجر الفرسان بالضحك، الذي لم يعرف وجوههم منذ فترة طويلة، إلا أنهم سرعان ما كظموا ضحكهم عندما رمقهم قدموس بنظرة لا تخلوا من ابتسامة خفية، أدركوا من خلالها أن عليهم إظهار الاحترام اللازم للمكان.

ولج قدموس باب المعبد مع اثنين من رجاله، بينما بقي الثلاثة الآخرون في الخارج، تحسباً لطارئ ما في هذه المنطقة الموحشة الخالية من البشر، إلا من بعض عابري السبيل، أو ممن يؤمونها لزيارة المعبد بقصد التنجيم والعرافة.

عَبَرَ قدموس ومرافقوه رواقاً طويلاً معتماً، تخترق عتمته بعض خيوط الضوء القليلة، المتسربة من سقفه المصنوع من أغصان الأشجار الغليظة المشذبة، المحمولة على أعمدة من جذوع الأشجار، ترتكز على أرض الرواق المؤدي إلى فناء المعبد، حيث تجلس الكاهنة.

الكاهنة بيثيا تتلقى الوحي من أبولو في معبد مدينة ديلفي

اقترب قدموس من الكاهنة بخطوات وقورة متأنية، يتبعه مرافقاه، وألقى تحيته عليها باحترام وتهذيب، إلا أنها، كعادتها مع زائريها، فاجأته على الفور، ودون أن ترد تحيته أو تلتفت إليه، بسؤالها عما حدا به للقدوم إلى ديلفي، فانتفض في مكانه، وأحجم عن الإجابة على سؤالها، وصمت قليلاً، وقد صعدت الدماء إلى رأسه، لاعتقاده أنها لم ترد تحيته لأنه رجل غريب.

هم بالخروج من المعبد، فاستوقفه مرافقاه، وخاطبه أحدهم بالكنعانية بصوت خافت:

– مهلاً يا سيدي... دع الغضب جانباً، ولنستمع إليها حتى النهاية، علنا نحصل منها على ما يسهل أمرنا، ويوضح سبيلنا إلى الغاية التي جئنا من أجلها، وبعد ذلك افعل ما تشاء، حطّم المعبد إن شئت يا مولاي، فربما لم تقصد الكاهنة إهانتنا، أو أنها تعامل زوارها جميعاً بالطريقة ذاتها.

وقف قدموس قليلاً وأخذ يفكر بالأمر، فهو الأمير الكنعاني، ابن أجينور، سيد البحار وملك صور العظيمة، الذي يتسابق الرجال لنيل بعض الحظوة لديه، كيف له أن يحتمل هذه الإهانة، ولكن لا بأس، قال في نفسه، فقد حضرت إلى هذه البلاد لغاية تتعلق بمصير أختي الأميرة، وعليّ إنجازها.

وبعد قليل هدأت ثورة غضبه، وعاد إلى حيث الكاهنة جاثمة على مقعدها العتيق دون حراك، وعيناها الجامدتان شاخصتين إلى أرض المعبد، دون أن تنبس ببنت شفة، وكأن شيئاً لم يحدث، فقد اعتادت على مثل هذه المواقف وردود الأفعال مع العديد من زوارها، وهي تنتظر سماع كلام قدموس، فراح يقص عليها ما حصل لأخته أوروبا.

كانت الكاهنة تستمع إليه دون حراك، كان وجهها جامداً ثقيلاً، دون أية ملامح، أو أية علامة من علامات الدهشة. وعندما فرغ قدموس من كلامه، بدأت مراسم استحضار الوحي من أبوللو، بالحركات والطقوس عينها حتى انتهت.

التفتت إلى قدموس، بعد أن رفعت ملاءتها عن وجهها، وأسدلتها على ظهرها، وكأنها ترفع الحجاب عن الحقيقة، وقالت له دون مقدمات:

– لقد اختطفها زيوس، وخبأها بعيداً عن عيون البشر جميعاً، وعن زوجته هيرا، فلا تجهد نفسك بالبحث عنها، فهي في كنف الآلهة، ولا تعر اهتماماً لتوعد والدك، لأنه قد مات، بل أسس لنفسك مدينة جديدة في بلادنا على غرار مدنكم في كنعان.

صدم كلام الكاهنة قدموس، وكان عاجزاً عن فعل أي شيء، أو التفكير باي شيء. واستأنفت الكاهنة كلامها:

– بعد أن تخرج من هنا، امضِ في طريقك وستجد بقرة بيضاء، لم يعرف النير رقبتها، تقف فوق مرج أخضر منعزل، فاتبعها إلى المكان الذي تقيل فيه، وهناك أقم مدينتك وابن أسوارها، وسمّ البلاد المحيطة بها بيوتيا "بلاد البقرة".

ازداد ذهول قدموس مما سمع، وحزن كثيراً على موت أبيه، وعلى مصير اخته، وقال للكاهنة:

– هلا أخبرتني أيتها المحترمة كيف مات أبي؟.

– رمقته بنظرة لا تخلو من المواساة والاحترام، وهي التي تدرك من هو محدثها، ومن هي الأميرة أوروبا، ومن أية بلاد هم، وتدرك أيضاً من هو زيوس خاطف أوروبا. ثم قالت له بصوت متهدج ولهجة وقورة فيها الكثير من الإجلال والاحترام:

– لقد مات بسبب حزنه على أبنائه.

وصمتت قليلاً ثم استأنفت، وكأنها تقدم عزاءها إلى الفارس النبيل، قائلة:

– إنها مشيئة الآلهة يا بني، فلا تدع الحزن واليأس يدخلان إلى قلبك، فهما يقتلان النفس، ويعكران صفاء القلب والعقل، دع الأمس خلفك، وانظر إلى الغد الذي اختارتك الآلهة من أجله، فالحياة تسير إلى الأمام لا إلى الوراء.

– وماذا عن أخوي فينيق وكيليك؟.

– إنهما حيان يرزقان وقد عادا إلى سوريا.

خفف هذا الخبر قليلاً من وقع ما سمع، ثم شكر الكاهنة، وغادر المعبد، وقد اضطرب كيانه، وهاله ما سمع من أخبار، وأدرك أن لا فائدة ترجى من البحث عن أوروبا، فامتطى جواده وتابع المسير، ولحق به رجاله الخمسة.

***

أخذ قدموس يعود بذاكرته إلى الوراء ويسأل نفسه: أما كان من الصواب لو أننا اصطحبنا الأميرة معنا إلى جبيل، ولم نتركها وحيدة في القصر؟ لا وحق الآلهة لما كان زيوس أو غيره استطاع اختطافها وهي بالقرب مني. ولكن ما العمل الآن، وقد أصبحت في عهدة سيد آلهة الإغريق زيوس الجبار؟... ولكن لا، أقسم بدماء أدوني أنني لن أدعه ينجو بفعلته، وسأجعله يندم على ما قام به، ولو قُدّرَ لي أن ألتقيه فسأجعلن منه عبرة لغيره من آلهةٍ وبشر، ممن تسول لهم نفوسهم المساس بأي شيء في كنعان.

وغرق قدموس في تفكير عميق، أيقظ فيه اعتزازه بانتمائه إلى كنعان، فاستنفرت كبرياؤه، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام تحدٍ كبير، ولا عجب في ذلك، فالأمر يتعلق، من جهة، بكبريائه وكبرياء وطنه، ومن جهة أخرى، بخصم قوي تهابه آلهة تلك البلاد، فضلاً عن سكانها.

كان يحدّث نفسه وهو في قمة التحفز، فهو يواجه خصمه في عقر داره، وبين آلهته ورعيته من البشر، فانتابه، إذ ذاك، شعور رهيب بأنه محاصر من كل الجهات، لا يلوي على شيء، سوى على رجاله الخمسة. لذلك قرر، وهو الجندي الخبير والفارس الشجاع، أن يغير مسار المواجهة، فينسحب من هذه البلاد ويعود إلى سوريا ليضع خطة مناسبة للانقضاض على زيوس.

إلى جانب ذلك فقد ساوره الشك في كلام الكاهنة، وانهالت عليه التساؤلات التي لم يجد لها إجابات شافية:

– أحقاً ما قالته لي الكاهنة؟ أم هي اختلقت هذه النبوءة لتدخل اليأس إلى قلبي، فأكف عن البحث عن أختي؟.

– ثم ما الذي يدفع آلهة هذه البلاد لتمنحني أرضاً أبني فيها مدينة، وأنا الغريب القادم من سوريا؟.

– ألا يكفي زيوس أنه اختطف اختي حتى يطلب مني البقاء في بلاده، أم تراه يقصد اختطافي أنا الآخر بحيلة أخرى؟.

ولكن هيهات له أن يخدعني، فلن أبقى في هذه البلاد، وسأعود إلى صوري الحبيبة. وحتى لو كانت الكاهنة صادقة فيما تقول، فسأغير طريقي وأسلك طريقاً أخرى، كي لا أرى تلك البقرة التي حدثتني عنها، والتي يمكن أن تكون جزءاً من خديعتها أو خديعة زيوس.

وفيما هو يحدث نفسه مطرقاً إلى الأرض، وفرسانه الخمسة يجدّون السير خلفه، وينهزون جيادهم للّحاق به، ويترقبون بقلق ما سيكون عليه رد فعله، حيال ما سمعه من الكاهنة، توقف فجأة ورفع يده اليمنى يومئ بها إلى رجاله للتوقف، وتغيير اتجاه سيرهم للعودة إلى الوطن، وإذا به يرى من بعيد مرجاً اخضر خالياً من كل شيء، إلا من بقرة بيضاء ناصعة، فتوقف قليلاً ثم سار باتجاهها واقترب منها بحذر، وذهل عندما رآها تنظر إليه كما لو كانت تنتظره بفارغ الصبر. عند ذلك شعر بأن كل تلك الهواجس التي كانت تجول في راسه قد تلاشت دفعة واحدة، وأيقن أن آلهة الإغريق جادة فيما أوحت به إليه عن طريق الكاهنة، وأن القدر شاء له البقاء في هذه البلاد الموحشة، وشعر أنه أصبح في مأمن، ولاحت أمامه بارقة أمل في التوصل إلى معرفة مكان أخته أوروبا خلال وجوده في هذه البلاد، وعاد عن قراره بالعودة إلى صور، فترجل عن جواده، وتبعه رجاله الخمسة، فأمامه الكثير من العمل في هذه البلاد، أقلّه بناء مدينة فيها.

جلس على الأرض وتحلق رجاله حوله، وأخذ يخط رسالة إلى أخويه فينيق وكيليك، يخبرهما فيها بما حصل له في رحلته، واضاف في رسالته، العابقة بالروح الحضارية الراقية، التي غمر بها الكنعانيون شعوب البحر السوري من أقصاه غلى أقصاه، وأناروا حياتهم المظلمة، قائلاً:

"لو كان البحث عن أوروبا أمراً يخص عائلتنا فقط، لعدت إليكم مسرعاً، وحملت رفاة أبي، وغادرنا صور إلى الأبد، ولكنه أمر يهم صور وكنعان كلها، لذلك أقول لكم، أن علينا المضي في المعركة مع زيوس حتى النهاية، معركة من نوع آخر لم يألفه زيوس. فهي ليست معركة تربص وخداع، أو معركة نسعى فيها إلى الغدر والثأر بدمٍ بارد، فنحن رمينا هذه العقلية وراءنا منذ قرون، بل هي معركة نسعى فيها إلى أن نهب الحياة لأنفسنا ولغيرنا، لا أن ندمر حياة الآخرين كي تبقى حياتنا.

وأنا على يقين، يا أخويّ، أنني أخاطب فيكما كنعان كلها، وأن صوتي سيصل إليها واضحاً جلياً، لتظل جبالنا ووديياننا تردد صداه إلى الأبد، وليس لدي ما أقوله لكما إلا وصيتي، ولعل الآلهة تشهد على ما أقول:

"**أغرقوا البحر بسفنكم ومراكبكم حتى يستغيث اليمّ.**

واملؤوه بأشرعتكم الأرجوانية حتى تحمر صفحة مياهه.

وانقلوا الحرف الكنعاني إلى أنحائه.

وأقيموا المدن فيه، وعلموها فنون الزراعة والصناعة.

وأضيئوا منارات حضارتكم لتبدد الظلمة عن شعوبه.

عندها، وعندها فقط، سيغدو البحر الواسع بحيرة كنعانية، يذوب فيها زيوس، كما تذوب قبضة ملح في بحيرة عذبة، ويدرك النسر عندها أنه مقصوص الجناحين، ومحاصر في قمة جبل الأوليمب... وما قيمة النسر بلا جناحيه؟.

أما أنا، المغترب[42] في هذه البلاد الموحشة، التي استغاثت بي على لسان آلهتها، فلا أجد أمامي إلا تلبية استغاثتها، تلبية نابعة من ذلك النداء الصارخ في داخلي، ومن الحس الإنساني الذي نحمله جميعاً في وجداننا، بأن الحضارة والمعرفة ليستا حكراً على أحد، بل هي مشاع بين الشعوب والأمم، تنهل منها على نسبة مواهبها.

وعهدي لكم أن تكون أعمالي في هذه البلاد صورة عن أعمالكم، كي أكون، بحق خير رسول لأعظم أمة"

وبعد أن أنهى قدموس كتابة رسالته، حمّلها لأحد رجاله، فانطلق بها يسابق الريح إلى أرض كنعان، وهكذا لم يتبقَ مع قدموس سوى أربعة رجال.

في هذه الأثناء كانت البقرة البيضاء تخور، وكأنها تطلب من قدموس ورجاله أن يلحقوا بها، فامتطوا جيادهم ومضوا في إثرها طوال النهار والليل، إلى أن لاح أمامهم في الصباح أحد الوديان العميقة، فتوقفت البقرة فجأة على تل مزهر جميل، بالقرب من الوادي الذي تحيط به

(42) – يعتبر قدموس أول مغترب سوري في التاريخ، وأول رسول للحضارة السورية.

مساحات خضراء من كل جانب، واتجهت برأسها نحو السماء، وخارت خواراً شديداً، واستدارت بنظرها نحو قدموس ورجاله، ثم قالت على العشب الأخضر.

وهنا طفح قلب قدموس بالبشر، وأقام مع رجاله مذبحاً من الحجارة لأبوللو، ليقدم عليه البقرة البيضاء قرباناً له، فأرسل رجاله لإحضار الماء لتقديم القربان.

ذهب الرجال إلى غابة مجاورة، لا تزال بكراً، ولم تلمس أشجارها بعد فأس حطاب، وفتشوا فيها عن الماء، إلى أن وجدوا مغارة عميقة، تغطيها الأعشاب والشجيرات، وترتفع حولها الصخور الضخمة، ويسيل منها جدول صغير، تنساب مياهه الرقراقة متلوية بين الصخور.

وما أن اقترب الرجال الأربعة بآنيتهم من ماء الينبوع، حتى فاجأهم تنين مهول، يتوج رأسه عرف ذهبي رهيب، وتقدح عيناه بالشرر، ويفتح شدقيه المدرّعين، فيكشف عن ثلاثة صفوف من الأنياب السامة، ويخرج منه لسان مثلث الشعب، ويعرف هذا التنين في تلك المنطقة باسم "آريس"[(43)].

أخذ التنين يتلوى بين الصخور، ويرسل صوتاً مروعاً، ابيضت له وجوه الرجال من شدة الهلع، وتشنجت أوصالهم، وسقطت الأواني من أيديهم، وانتصب التنين على ذيله القوي، فعلا رأسه فوق أشجار الغابة، وفغر شدقيه، وانقضّ على الرجال، قبل أن يتسنى لأحدهم التفكير بالفرار، أو الإتيان بأية حركة لمواجهته، فجندلهم، بلمح البصر، صرعى بلا حراك، بضربة واحدة من ذيله.

طال انتظار قدموس، ولم يعد رجاله من الغابة، حتى مالت الشمس نحو المغيب، وتطاولت الظلال على الأرض، فدخل القلق إلى قلبه، ومضى في الاتجاه الذي قصدوه، وقد لفّ جسمه بفروة أسد، وتمنطق بسيفه، وأمسك رمحه بيده.

ولما دخل الغابة، هاله منظر جثث رجاله الأربعة مطروحة على الأرض، ينتصب فوقها التنين المخيف، فصاح قدموس بصوت ملتاع، رقّت له عيون التنين:

– أي أصحابي الأوفياء، سأنتقم لكم، فإما أن أبلغ مرادي، أو أوافيكم إلى مملكة الموت المظلمة.

---

(43) – آريس: إله الحرب عند الإغريق.

ورفع عن الأرض صخرة ضخمة، وضرب بها التنين ضربة يميد لها البرج الهائل، لكنها لم تنله بأثر، فقد كان جلده قاسياً كالحجر، تغطيه حراشف فولاذية.

قدموس الجبار يلقي صخرة كبيرة على التنين آريس

ثم استل رمحه وطعنه في ظهره طعنة اخترقت الحراشف وانغرست عميقاً في أحشائه، فأخذ التنين يتقلب ويتلوى على شكل حلقات، وينتفض عالياً ثم ينخفض، يحاول الوصول برأسه إلى مكان الطعنة، فيعض الرمح بأنيابه ليتخلص منه، لكنه لم يستطع إلا تحطيم القناة، فيما بقي رأس الرمح غائراً في جسمه.

انتفخت أوداج التنين من الغضب والألم، وامتلأت بالسم الأسود الزعاف، وتدفق الزبد السام

من شدقيه، وسال على جانبي رقبته، ثم عاد لينتفض من جديد، ويستدير على نفسه بشكل جنوني، وأخذ ينهش جذوع الأشجار ويقتلعها، ويجلد الأرض بها، ويضرب الصخور بذيله فيتطاير حطامها بعيداً، وقد حملت الريح صوته إلى أقاصي تلك البلاد، وامتلأ الهواء برائحة أنفاسه الكريهة، ثم حاول من جديد الانقضاض على قدموس الجبار، ولكن البطل الذي احتمى بفروة الأسد، كان يكيل له الضربة تلو الضربة، فيعض السيف بأنيابه، لتنزلق مثلومة على صفحته.

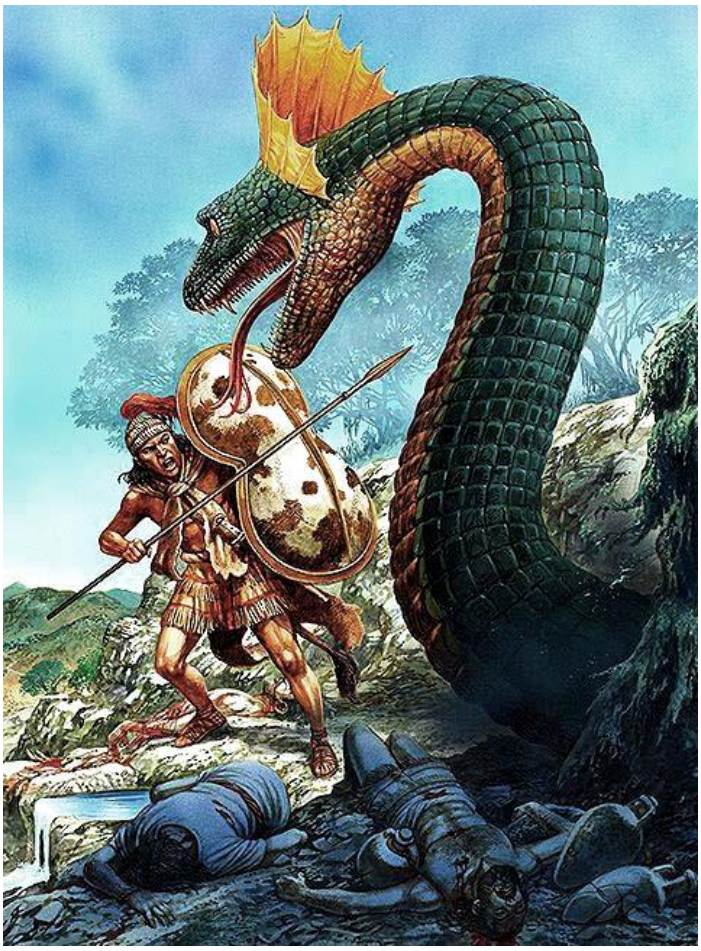

قدموس الجبار يطعن التنين بالرمح فيسقطه صريعاً على الأرض

وأخيراً سقط التنين على الأرض صريعاً، فسارعه قدموس بضربة من سيفه الصاعق على رقبته، فانفصل راسه عن جسده، فأخذ قدموس الجبار الرأس وعلقه على شجرة بلوط قديمة، فمال جذعها تحت ثقله.

جلس قدموس وحيداً ليستريح تحت شجرة بلوط مجاورة، بعد عناء المعركة التي خاضها، وأخذ ينظر بدهشة إلى التنين الذي صرعه، وإذا به يفاجأ بهاتف خفي يقول:

– ما بك يا قدموس، تمتع نظرك بالتنين الذي قتلته بيدك، فاعلم أن الناس سيقفون قريباً، ليمتعوا أنظارهم بمرآك وقد استحلت بذاتك إلى تنين مثله.

انتصب قدموس واقفاً، وجال بنظره حوله، باحثاً عن مصدر الصوت، واضطرب قلبه، وهو يسمع تلك النبوءة، وانتصب شعر رأسه وهو ينظر إلى التنين الصريع، إذ ذاك ظهرت أمامه الإلهة "أثينا"[(44)]، فتجمد نظره عليها، وهي تطلب منه أن ينزع أنياب التنين، وينثرها كالبذور في الحقل المجاور، بعد أن يحرثه، ثم اختفت.

نظر قدموس إلى الحقل المجاور، فوجد محراثاً، وقد شُدَّ إلى نيره ثوران كبيران، فأخذ يحرث الحقل، وينثر أنياب التنين في خطوط الحراثة. وما إن انتهى حتى شُقت الأرض وظهرت منها، بادئ الأمر، أسنة رماح عند كل ناب من الأنياب، وبرزت بعدها زعانف الخوذ الحديدية، ثم رؤوس المحاربين، ثم أكتافهم، فصدورهم المغطاة بالدروع، فأذرعهم الممسكة بالتروس.

قدموس يتفرج على الرجال الذين نبتوا من الأرض وهم يتقاتلون

(44) – أثينا: إلهة الحضارة والحكمة والفنون عند الإغريق، ومحط ثقة زيوس المطلقة، فهي ابنته المدللة، لأنها الوحيدة من بين بناته التي لم تلدها أم، بل انبثقت من رأسه مباشرة، مرتدية درعاً، فجاءت متعطشة للقتال ومحاربة الأجانب.

وهكذا خرجت من أنياب التنين كتيبة من المحاربين الأشداء، فهب قدموس الجبار، مجرداً سيفه، ليتصدى للخصم الجديد الغامض، لكنه رأى أن يستخدم الحكمة في محاربتهم، فاختبأ خلف شجيرة صغيرة، وأخذ يقذف الحجارة على المقاتلين، ليوقع بينهم، فظن كل منهم أن الآخرين يرمونه بالحجارة، فنشبت بينهم معركة حامية الوطيس، ذهب أغلبهم ضحيتها الواحد تلو الآخر.

وعندما لم يتبقَّ منهم سوى خمسة، همَّ قدموس بالانقضاض عليهم، وإذا بأحدهم يلقي سلاحه على الأرض دلالة على السلام، فتوقفوا عن القتال فيما بينهم، عند ذلك بادرهم قدموس من خلف الشجيرة شاهراً سيفه، وقال لهم بحنكة وذكاء:

– إن الآلهة أنبتتكم من الأرض لتكونوا جنودي، فهلاّ انصعتم لمشيئة الآلهة؟.

فأجابوه مع انحناءة من رؤوسهم:

– أجل يا سيدي.

عندها تآخى الرجال الخمسة الصناديد فيما بينهم، وأعلنوا ولاءهم لقدموس، فاستعاض بذلك عن رجاله الخمسة، الذين خسرهم، بخمسة رجال جدد، باتوا أتباعه ومعاونيه المخلصين.

{{ قدموس يبني مدينة طيبة ويعلم الإغريق }}

جلس الرجال الخمسة الصناديد على التل الأخضر أمام سيدهم قدموس، وراح يتبادل معهم أطراف الحديث ويخبرهم بأن ما دفعه للقدوم إلى هذه البلاد هو البحث عن اخته اوروبا، فقال احدهم:

– وهل وجدتها يا سيدي؟.

أجابه قدموس والألم يعتصر قلبه:

– لقد عرفت مكانها فقط، ولكني لا أتمكن من الوصول إليها.

– وكيف ذلك يا سيدي؟ أتعجز عن الوصول إليها وأنت المقاتل الجبار؟.

– لأنها في قمة جبل الأوليمب، حيث اختطفها زيوس، ولا أحد يستطيع الدخول إلى جبل الأوليمب.

– كيف عرفت ذلك يا سيدي؟

– لقد أخبرني بذلك أبوللو، وطلب مني، مقابل ذلك، أن أبني مدينة في هذه المنطقة التي نقف فيها.

دهش الرجال من كلام قدموس وراحوا يتبادلون فيما بينهم نظرات الاستغراب، وقال أحدهم لرفقائه بصوت هامس، خشية أن يسمعه قدموس، الذي لا يزال يكتنفه الغموض بالنسبة إليهم:

– أيكون هذا السيد إلهاً، حتى تكلمه الآلهة وتصاهره، وتنبت له الرجال من الأرض ليكونوا أتباعاً له، وتمنحه أرضاً ليست له ليبني عليها مدينة له؟.

ثم توجه إلى قدموس بلهجة فيها شيء من التشكيك متسائلاً:

– وهل يمكنك بناء مدينة يا سيدي؟.

انتفض قدموس، وقد شعر بالإهانة لما تضمنه السؤال من تشكيك بقدرته، وصمم أن يلقنهم درساً في الاحترام والطاعة، ولكنه أدرك لتوه أنه أمام أناس غليظي القلوب، لا يعرفون شيئاً سوى القتال، وتغلب لديهم القوة الجسدية الغاشمة على العقل والمعرفة، فقرر أن يجعل من كلامه إليهم درساً في الثقة، يكون الخطوة الأولى في عملية تمدينهم وتحضيرهم، فقال لهم بلهجة من يعلّم أطفالاً أبجدية الحياة الأولى:

– أنصتوا إلي جيداً واسمعوا ما أقول، فما أنا إلا بشراً مثلكم، شاءت الأقدار أن أنتمي إلى شعب متحضر وبلاد غنية تقع بعيداً وراء هذا البحر، إلى الشرق من المكان الذي نقف فيه، تدعى سوريا، منحتها الآلهة خيراً وافراً، وحبتها بطبيعة خلابة، زاد عليها وأغناها ما بذله شعبها من نشاط عمراني وزراعي وصناعي، فأصبحت رائدة الأمم في الحضارة، ومعلمة الشعوب وهاديتهم، وكل فرد فيها يعرف كيف يبني مدينة كالتي تسألون عنها.

واعلموا جيداً أنه ما من إنسان، مهما بلغت قدرته، قادر على صنع أي شيء إلا بالتعاون والتضامن مع غيره، كحالنا نحن الآن، لذلك فأنتم جنودي ومعاوني، وبمساعدتكم سأبني مدينتي، وأجعلها صورة عن المدن في سوريا، وأنظم عمرانها، وأسن قوانينها، وأجعل

الحكم فيها بالتشاور والأكثرية، وأشيّد قلعتها الحصينة، وأسمها باسمي قلعة "قدميا"، وسيكون لأسوارها سبعة أبواب ضخمة قوية كمدن سوريا، وأنشئ جيشاً قوياً من المقاتلين الأشداء ليدافع عنها، وأسمي المدينة "طيبة" ففيها ستطيب الحياة، وينعم أهلها برغد العيش لأنني سأعلّمهم، ابتداءً منكم، أنتم الخمسة، كل ما اختزنه عقلي وقلبي من معارف وخبرات لتصبح هذه المدينة معلمة مدن الإغريق، ودرة بلادهم، ومنارة حضارية تشع على القارة الواقعة وراءها، والتي شرفها اسم أختي أوروبا.

وبعد أن أنهى قدموس كلامه، نظر إليه الرجال الخمسة، فاغرين أفواههم، ورافعين حواجبهم وقالوا له:

– لا وحق الآلهة لم نفهم شيئاً مما قلته يا سيدي، سوى أمراً واحداً، هو إنشاء الجيش القوي والمقاتلين الأشداء.

ابتسم قدموس وقال لهم: هيا إلى العمل وستفهمون كل شيء في مقبل الأيام.

***

شرع قدموس ببناء مدينة طيبة، وكان الناس يتوافدون إليه من كل حدب وصوب، يساعدونه في البناء والتشييد، ويتعرفون إليه، ويعلنون ولاءهم له، ورغبتهم بالعيش في مدينته، فكان يستقبل الوفود تلو الوفود، التي كان يرسلها ملوك تلك البلاد، للاطلاع على سير العمل والتعرف على فنون العمارة التي يحملها هذا المغترب، القادم من بلاد كنعان، ويبدون إعجابهم ودهشتهم من هذه الفنون، فينقلونها إلى ملوكهم للاستفادة منها في ممالكهم ومدنهم.

ومع مرور الزمن، وشيوع صيت المدينة الجديدة والملك قدموس، تزايد توافد الناس للعيش فيها، فكبرت وتوسعت وازدهرت، وقد أشبعها قدموس بعبير الحضارة السورية، وأدخل إليها مختلف الزراعات والصناعات، فعلّم سكانها زراعة القمح، وصناعة الخبز، وزراعة التين والعنب، وصناعة الأقمشة، وتعدين الحديد لصناعة الأدوات والأسلحة.

وأدخل إلى طيبة، ومنها إلى كل بلاد الإغريق والقارة الأوروبية، الأبجدية الكنعانية، وعلم سكانها القراءة والكتابة، ونظم شؤون مملكته وإدارتها، وشرّع قوانينها، وأوجد مجلس المدينة، المنتخب من الشعب مباشرة، ليساعد الملك في حكم وإدارة المملكة، وسرعان ما أصبح قدموس من أشهر الملوك، وأغناهم وأوفرهم قوة ومنعة، فكانت خيراته لا تحصى، وجيشه قوي العدة والعدد، لا يقهر في القتال، وأصبح أهل طيبة يتباهون على باقي مدن الإغريق بما يتمتعون به من إنجازات حضارية.

الملك قدموس يقف أمام قلعة قدميا في مدينته طيبة

***

كان ذلك كله يجري في مدينة طيبة تحت أنظار الآلهة ومراقبتهم، فأصابهم الاندهاش والإعجاب الذي لم يكن يخلو من بعض الغيرة والغيظ من أفعال الملك قدموس، وكان آريس – إله الحرب – من أشد المعجبين به وببطولاته، خاصة عندما صرع ذلك التنين المسمى باسمه، فقرر أن يقدم له ابنته الجميلة "هارمونيا" من زوجته أفروديت، ليتخذها زوجة له.

أقيم بمناسبة زواج قدموس من هارمونيا حفل زفاف مهيب في مدينة طيبة، لم يحصل مثله من قبل، فقد باركته الآلهة وشاركت فيه، حنباً إلى جنب، مع البشر لأول مرة، حاملين معهم أثمن الهدايا.

وقد كانت أثينا، خلافاً لبقية آلهة الإغريق، مغتاظة أشد الغيظ من أعمال قدموس ومنجزاته، فرأت فيها تحدياً لألوهتها، إذ كيف لبشري فانٍ أن يبدي هذه الفعالية الحضارية، بينما لم تتجسد ألوهتها، وهي إلهة الحضارة والفنون، بمثل تلك الأعمال حتى الآن، لذلك فقد وجهت انتقاداً شديداً لآريس – إله الحرب – عندما أشاد بمدينة طيبة وأعمال قدموس فيها قائلة له بشيء من التهكم:

– أراك شديد الإعجاب بذلك الكنعاني الغريب الوافد إلى بلادنا!.

– أجل، وما الغضاضة في ذلك؟ فأنا تروقني أعمال هذا الفارس النبيل، خصوصاً تلك القلعة المنيعة المدججة بالسلاح والمقاتلين الأشداء.

– وها أنت تطلق عليه لقب فارس نبيل أيضاً، فهل فقدت صوابك يا آريس؟!.

أجابها وقد شعر بالإهانة قائلاً:

– عليك أن تدركين، يا أثينا، أن من أسميه فارساً نبيلاً، يستحق لقباً أكبر من هذا، إنه سليل الآلهة والملوك، فهل نسيتِ أنه ابن أجينور ملك صور العظيم، وحفيد بوزيدون إله البحر وسيده[45] ؟. وليكن معلوماً لديك أنني سأقدم له ابنتي هارمونيا زوجة له، فأمثاله جديرون بمصاهرة الآلهة.

فاستشاطت أثينا غضباً وقالت لآريس:

– وهل يمكنك تجنب غضب والدنا زيوس؟.

أجابها، وقد بدا واضحاً له أنها تضمر الكيد له، قائلاً:

– لو كان ذلك يغضب زيوس، لما سمح له ببناء هذه المدينة العظيمة وسط بلادنا.

عند هذا الحد، وجدت أثينا أنه من الأفضل التوقف عن إثارة غضب إله الحرب، فرأت أن تتخذ أسلوباً خبيثاً في تعاملها مع قدموس، وصممت على محاربته حتى النهاية، وأنهت حديثها مع آريس قائلة:

---

(45) – تقول الأساطير الإغريقية أن أجينور هو ابن بوزيدون إله البحر وشقيق زيوس وتسميه الأساطير السورية بوصيدون.

– ستثبت لك الأيام صحة ما ذهبت إليه، لكن لا بأس الآن من استثمار خبراته ومعارفه، وبعد ذلك سترى العجب العجاب من أفعال زيوس.

كانت أثينا واثقة مما تقول، لأنها ابنة زيوس المدللة، ومحط ثقته، وكاتمة أسراره، يؤمنها على درعه وسلاحه المدمر، الصاعقة، لذا كانت هدية أثينا لقدموس في حفل زفافه، عقداً عجيباً من الذهب الخالص، صنعه هيفاستوس إله الحدادة والبراكين في جبل الأوليمب، وقد أصبح هذا العقد مصدر شؤم لكل من يستخدمه من ذرية قدموس حتى النهاية.

وقد صممت أثينا أن تبني مدينة على غرار مدينة طيبة، لمنافستها ومحاربتها، ولكي تثبت قدرتها على التعمير والإنشاء، وأنها، بحق، إلهة الحضارة والفنون، وتسميها أثينا.

أما قدموس الملك فقد أنجب من هارمونيا أربع بنات هن: "أوتونوي"، "إينو"، "سيميلي"، "أغافي"، وابن واحد خلفه على عرش طيبة بعد أن أدركته الشيخوخة[46].

***

{{ الإلهة أثينا تنزل المآسي ببيت قدموس الملكي }}

لم يهنأ بيت قدموس الملكي بأمجاده العظيمة، فقد ترافقت هذه الأمجاد دائماً بالمآسي والأحزان الرهيبة، التي أنزلتها به الآلهة في حياته، ولحقت بأحفاده وذريته بعد مماته، بفضل ذلك العقد الإلهي المشؤوم، الذي قدمته أثينا إلى قدموس، هدية زفافه، تعبيراً عن حسدها وغيظها من أعماله العظيمة.

فقد بدأت هذه المآسي بابنته الأميرة أوتونوي، التي فجعتها الآلهة، أمام عينيها، بموت ابنها الوحيد "أكتيون" في ريعان شبابه، ميتة لا مثيل لها في الفظاعة والقسوة، دون أن يقترف أي ذنب، فأمضت حياتها تكابد الحزن والألم حتى وفاتها.

---

(46) – حافظ بيت قدموس الملكي على أمجاد مؤسسه العظيم حتى النهاية، فأنجب الملوك والآلهة والأبطال العظماء التاريخيين الذين لا تزال اليونان تفخر بهم حتى يومنا هذا.

كان أكتيون صياداً ماهراً، اعتاد أن يخرج في رحلات صيد ملكية، يرافقه فيها عدد من أترابه الفتيان، من مختلف طبقات الشعب في طيبة، يتبارون في استعراض مهاراتهم في اقتناص الغزلان والطيور وغيرها من الطرائد.

وفي أحد أيام الصيف الحارة، خرج الفتى إلى إحدى الغابات لصيد الغزلان مع مرافقيه من الفتية، تتبعه كلاب صيده، فدفعه العطش والحر إلى نبع صغير، ذي مياه رقراقة، تصب في بركة داخل كهف ظليل، وأراد أن يبترد ويروي ظمأه، ولم يكن يعلم، لا هو ولا مرافقوه، أن هذا الكهف هو المكان الذي اعتادت "أرتيميس" – إلهة الصيد والبراري– أن تستحم فيه.

خلعت أرتيميس ثيابها، ووقفت بجسدها العاري على حافة البركة لتستحم، ففوجئت بالفتى قرب النبع، فاعتراها غضب شديد، ودون أن تجهد نفسها بالتفكير في نية الفتى الحقيقية، فيما إذا كان يقصد إهانتها، أم أنه جاء إلى النبع ببراءة وعن غير قصد، فما كان منها إلا أن رشقته على وجهه بقطرات ماء من يدها، فتحول على الفور إلى غزال، ليس في شكله الخارجي فقط، بل في قلبه أيضاً، الذي تحول إلى قلب غزال ضعيف، بعد أن كان لا يعرف الخوف ولا الوجل.

أما مرافقوه من الفتية، فقد أصابهم الذهول الشديد، عندما شاهدوا بأم أعينهم كيف تحول أميرهم إلى غزال ضعيف، يجفل وينتفض يمنة ويسرى، ويقفز خائفاً مذعوراً دون سبب، فلم يتمكنوا من الإتيان بأية حركة لهول المفاجأة، وتسمروا في أماكنهم لا يلوون على شيء.

أما كلابه، التي كانت أمينة مخلصة له، واعتادت أن تقف أمامه وهي تهزُّ أذيالها متحفزة متأهبة، تنتظر إشارة منه لتنقض على الطريدة، فها هي الآن تراه ولم تعرفه، فجرت وراءه تطارده، وهو يركض أمامها مذعوراً، لكن خوفه الشديد أربكه، وخفف من سرعته، فلحقت به وأدركته، وانقضت عليه ومزقته إرباً.

عاد الفتية إلى طيبة، وأخبروا والدته بما حدث، فحزنت كثيراً على موته، وحزن عليه جده قدموس، وقال لها معزياً: لو كان القاتل بشرياً مثلنا لرأيتِ مني ما يعجز الرجال عن فعله، ولكن ما العمل إذا كان القاتل إلهاً، وأي إله، إنه أرتيميس – ربة الصيد، التي تعلم الناس فنون الصيد، تقتل صياداً ماهراً بهذه الطريقة البشعة.

لم تشفِ هذه المأساة غليل الآلهة من قدموس الجبار، بل أتبعتها بمأساة أخرى أشد وأصعب، أرهقته وأثقلت كاهله. فها هو يُفجع أيضاً، مع ابنته الثانية الأميرة إينو بموت طفلها الوحيد، ميتة لا تقل بشاعة عن ميتة حفيده الأول، في الوقت الذي كانت فيه أسرة قدموس لا تزال تكابد الحزن على موته، وتقدم تعزيتها لأمه.

فقد كانت الأميرة إينو زوجة أحد أشهر ملوك الإغريق، والذي كان لا ينفك يفاخر، في كل مناسبة، بمصاهرة قدموس الملك، ويتباهى أمام ملوك الإغريق بأنه حظي برضى الآلهة فأنعمت عليه، وجعلت من ابنة قدموس الجميلة، سليلة الآلهة والملوك، زوجة له، وأماً لولي عهده.

وبعد أن أنجبت منه طفلها الوحيد، وقعت المأساة، فقد رمته الآلهة بالجنون، ففقد قدرته على الإدراك والتمييز، وأقدم على قتل طفله، مما كاد أن يودي بأمه الأميرة إلى الجنون، فما كان أمامها إلا أن حملت جثة طفلها، وعادت مسرعة إلى طيبة، مسقط رأسها، وعرين والدها قدموس الجبار، تاركة وراءها مملكة كبيرة لم تعد تعني لها شيئاً، ولا ترى فيها ما يشدها للبقاء، ولا ما يملأ عينيها الحزينتين، فلا المُلك ولا الجاه كانا كافيين للتعويض عن موت طفلها وجنون زوجها.

إله البحر بوزيدون يستند إلى صخرة في عمق البحر وفي يده رمحه مثلث الشعب

وقد أخفقت محاولات الجميع، خصوصاً والدها قدموس، في تهدئتها والتخفيف عنها، فهي لم تجد في هذه المواساة أية فائدة، ولا في حياتها أي معنىً بعد ما أصابها، فما كان منها إلا أن حملت جثة طفلها الغضة، في غفلة من ذويها، وألقت بنفسها في البحر لتموت معه.

استقبلت آلهة البحر جثثيهما وقادتهما إلى بوزيدون، إله البحار، الذي لم يشأ أن يرسلهما إلى العالم السفلي، عالم الأموات، بل جعل منهما إلهين خالدين من آلهة البحر يعيشان معه في مملكته.

أما المأساة الأعظم التي نزلت بقدموس الجبار، فهي تلك التي أصابت ابنته سيميلي، التي أنجبت الإله "ديونيسيوس"[47]، فقد ماتت قبل أن ترى طفلها الإله، وكان ذلك عندما وقعت عينا زيوس عليها، فجنَّ حباً بها لجمالها الأخاذ، وأراد أن يتزوجها.

رفضت سيميلي الزواج من زيوس، فعرض عليها أن تطلب منه ما تشاء لقاء موافقتها، وأقسم لها بنهر "ستيكس" أنه سينفذ ما تطلبه مهما كان، وهو يعلم أنه لا يمكنه الحنث بهذا القسم، لأن ستيكس هو رمزه الخاص، ونهره المقدس، فلا أحد يستطيع الحنث به حتى هو.

وفي هذه الأثناء كانت هيرا زوجته تستشيط غضباً وغيظاً، وهي تراقب ما يجري بينه وبين الأميرة سيميلي، بواسطة حارسها ورسولها الخاص، آرغوس، الذي ينقل إليها تفاصيل ما يجري خطوة خطوة.

وهيرا، كعادتها، لم تكن تتوانى عن معاقبة النساء اللواتي يقع زيوس في حبهن، حتى إن أخضعهن عنوة أو بالخديعة أو حتى بالتذلل والاستجداء، كما يجري الآن مع الأميرة سيميلي.

وها هي هيرا تقفز، في مخدعها، فرحاً عندما أخبرها آرغوس بأن زيوس قد أقسم للأميرة سيميلي بنهر ستيكس، فلمعت عيناها، وانفرجت أساريرها، فقد وجدت ضالتها، وصار بمقدورها الانتقام من سيميلي ومعاقبتها، فلجأت إلى حيلة ماكرة لتنال منها، وتصب عليها جام غضبها، وعرضت الفكرة على آرغوس فوافقها على الفور.

كانت حيلة هيرا بسيطة في ظاهرها، عميقة في أثرها ونتائجها، فقد أدخلت في قلب سيميلي الرغبة في أن تطلب من زيوس، مستغلة قسمه، أن تراه بكامل صفاته، كملك للسماء وسيد للصاعقة، ومطارد الغيوم، وهي تعلم أن أي إنسان يراه بهذا الشكل الكامل يموت فوراً، لأن زيوس كان يظهر عادة بإحدى هذه الصفات فقط، ونادراً ما يظهر بكامل صفاته.

---

(47) – ديونيسيوس: إله الكرمة والخمر عند الإغريق، الذي اقتبسه الرومان فيما بعد باسم باخوس، والنسختان مقتبستان عن إله الكرمة والخمر السوري الأقدم الذي لم تتوصل الأبحاث الأثرية إلى معرفة اسمه حتى الآن.

طلبت الأميرة سيميلي ذلك من زيوس، فوافقها، وهو يعلم مسبقاً النتيجة القاسية التي تترتب على هذا الطلب، ولكنه يعلم أيضاً أن ليس أمامه خيار آخر، فقد أقسم على ذلك بنهره المقدس.

فما أن توهج مجده المرعب كاملاً أمام عيني الأميرة سيميلي، حتى ماتت على الفور، فانتزع منها جنينها وخبأه في جنبه، بعيداً عن عيني هيرا، زوجته، والتي لا تتورع عن قتله فيما لو طالته يداها، وذلك إلى أن حان وقت ولادته، فأرسله إلى أحد الوديان لتعتني به الحوريات.

أخذت الحوريات تعتنين بالطفل عناية خاصة، ويقدمن له الأمبروزيا والنكتار حتى ينمو ويكبر، وهن يعلمن أنه سيصبح إلهاً هاماً ذا شأن في حياة الناس، إلى جانب الإلهة "ديميتر"، فهو إله الكرمة وهي إلهة القمح والحبوب.

كبر ديونيسيوس وترعرع، وأصبح فتىً جميلاً، طويل القامة، عريض المنكبين، شعره فاحم كثيف يتدلى فوق رداء أرجواني يغطي كتفيه القويتين[48].

قرر ديونيسيوس إنقاذ أمه سيميلي، التي لم ينسها أبداً، ولطالما تشوق لرؤيتها، فنزل إلى العالم السفلي بحثاً عنها، وعندما وجدها، قهر الموت وأخرجها إلى العالم العلوي، ولكن ليس إلى عالم البشر الفاني، بل إلى عالم السماء في جبل الأوليمب، لتسكن مع الآلهة الخالدين لأنها أم إله.

وبعد ذلك، شرع في إتمام رسالة جده، الملك قدموس، في تحضير الإغريق، فاختص في تعليمهم زراعة الكرمة، وبدأ يتجول في أنحاء بلاد الإغريق، ما عدا طيبة التي لم تكن بحاجة إلى علمه، فقد علمها قدموس هذه الزراعة من قبل.

اعتبر ديونيسيوس هذا التعليم شأناً دينياً مقدساً، يجري في طقوس احتفالية خاصة، تقام في كروم العنب والبراري والغابات، وهذا ما كان يفعله في تطوافه في مناطق بلاد الإغريق.

كان ديونيسيوس يهدف، بانتهاجه أسلوب الطقوس الاحتفالية الدينية، إلى ترسيخ زراعة العنب عند الإغريق، لما لها من أهمية في حياتهم، إلى جانب زراعة القمح وصناعة الخبز،

---

(48) – يظهر بوضوح أن هذه الصفات هي صفات كنعانية.

ولعلمه أن هذا الأسلوب هو الأجدى والأعمق أثراً في حياة الناس[49]، ومع ذلك لم تكن مهمته تخلو من صعوبات اعترضته خلال عمله.

فذات يوم، بينما كان ديونيسيوس يعبر إحدى المناطق، التي يسكنها شعب متوحش، في شمال شرقي بلاد الإغريق، في طريقه إلى الجنوب، واجه معارضة قوية، وتلقى إهانة من ملكها، الذي لم تكن تروق له ديانة الإله الجديد، وذلك خوفاً على ملكه، فانكفأ ديونيسيوس أمامه، واتخذ له ملجأً في أعماق البحر، ليتجنب معارضة هذا الملك.

لكنه عاد ثانية وانتصر عليه، وعاقبه عقاباً لم يكن قاسياً، بل كان لطيفاً، فسجنه في كهف صخري، ريثما تهدأ ثورة غضبه عليه بسبب الإهانة التي تلقاها منه، وليفسح له المجال ليثوب إلى رشده.

أما زيوس فقد كان قاسياً مع الملك، وأراد أن يُفهم البشر أن من يصارع الآلهة لا يعمّر طويلاً، فرماه بالعمى ومات على الفور.

وكان ديونيسيوس، في تطوافه في أنحاء بلاد الإغريق، يصطحب معه مجموعة من النسوة اللواتي يسبّحن بمجده أينما حللنَ، حيث لا معبد لهن، بل إن البراري هي معبدهن، فيندفعن وراء ديونيسيوس في الغابات والكروم، وفوق الجبال والوديان بغبطة وحبور، ويصرخن صرخات حادة، ويحركن العصي ذوات الرؤوس المدببة، لا يقف في طريقهن شيء.

وبعد سنوات من التطواف في بلاد الإغريق، علّم خلالها ديونيسيوس سكانها زراعة العنب، وصناعة الزبيب والنبيذ منها، ونشرَ أسرار عبادته الجديدة بينهم[50]، قرر الذهاب إلى طيبة، مدينته الأم، لرؤية جده قدموس، وجدته هارمونيا، حيث كانا لا يزالان يقيمان في القصر الملكي، وقد أدركتهما الشيخوخة.

---

(49) – لا تزال هذه الاحتفالات من أهم الأعياد الشعبية في اليونان حتى يومنا هذا، حيث تقام على المسارح في الهواء الطلق عند تبرعم الكرمة في الربيع وتستمر خمسة ايام متواصلة، تتوقف معها المشاغل اليومية للناس، ويطلق سراح المساجين أيضاً للمشاركة في البهجة العامة.

(50) – كان لصناعة النبيذ في بلاد الإغريق، وما يرافقها من مظاهر البهجة الجماعية، أثراً كبيراً على احتفالاتهم الشعبية مما ساهم مع الزمن في نشوء المسرح الإغريقي.

أتباع الإله ديونيسيوس يملأن الأواني بالنبيذ تحضيراً لإقامة حفلاتهن

كان ملك طيبة آنذاك شخصاً نزقاً عنيداً، وهو حفيد قدموس من ابنته الرابعة الأميرة أغافي، وهي الابنة الوحيدة لقدموس التي بقيت على قيد الحياة، ولم يكن الملك يعلم أن ديونيسيوس هو ابن خالته سيميلي، فأنى له ذلك وهو لم يعرف أن زيوس، في حينه، قد أنقذ الجنين من أحشاء خالته سيميلي عندما ماتت، ليصبح فيما بعد الإله ديونيسيوس.

وصل ديونيسيوس إلى طيبة، مسقط راسه، وكان يرافقه كعادته لفيف من أولئك النسوة، يرتدين فوق اثوابهن الأرجوانية جلود الغزلان، وفوجئ بما لم يكن في الحسبان، فقد كان ملك طيبة من معارضي تعاليم ديونيسيوس الجديدة، التي أخذ يحاربها بعد اعتلائه العرش، لذلك لم يكن راغباً بمجيء ديونيسيوس إلى طيبة، ورأى في تعاليمه تهديداً لأمن المملكة، فامتعض من مشهد النسوة وهن يرقصن حول ديونيسيوس، فأرسل في طلب قائد الحرس وقال له:

– اذهب على الفور والقِ بأولئك النسوة في السجن، خصوصاً قائد هذه الجوقة، الذي ينضح وجهه خمراً، إنه ساحر مخادع من "ليديا".

– سمعاً وطاعة يا مولاي، ولكن هلاّ تكرم سيدي وأعلمني شيئاً عن ليديا هذه؟.

– إنها بلاد في "الأناضول" مليئة بالسحرة والمشعوذين، الذين يعملون على خداع الناس وتضليلهم.

قال الملك ذلك ليهزأ من ديونيسيوس، فهو يظن أنه يسعى إلى دب الفوضى في البلاد، بفضل تعاليمه الغريبة وشعوذاته.

وقبل أن ينطلق قائد الحرس إلى مهمته، سمع الملك صوتاً رزيناً خلفه يقول: إن الذي ترفضه هو إله جديد، وهو ابن خالتك سيميلي، الذي أنقذه زيوس من الموت، وعهد إليه تعليم الناس زراعة العنب، إنه والإلهة ديميتر، إلهة القمح والحبوب، أكثر الآلهة نفعاً للإنسان في الأرض.

التفت الملك خلفه وإذا به حكيم طيبة وعرافها الأعمى، الرجل المقدس الذي يعرف الكثير عن مشيئة الآلهة، والذي تمكن، بفضل معرفته وحكمته، أن يجعل من طيبة مدينة مقدسة، تشخص إليها عيون الإغريق وقلوبهم لفترة طويلة، بعد أن كانت أنظارهم متجهة إلى مدينة ديلفي، حيث قام بنقل ما في معبدها من أشياء ورموز مقدسة، وهدايا وأعطيات تراكمت فيها عبر

السنين، إلى معبد أبوللو في طيبة، فغدت طيبة المدينة المقدسة الأولى للإغريق، ومحجتهم التي يؤمونها من كل الأصقاع والأنحاء في المناسبات الدينية، مما ساهم كثيراً في غناها وازدهارها.

ولكن الملك لم يصدق كلام العراف، وهو يعلم فقط أن خالته سيميلي ماتت قبل أن تلد جنينها، والتفت إلى قائد الحرس وصاح به:

– أما زلت واقفاً!؟ اذهب والقِ بهؤلاء المجانين في السجن.

واقتيد ديونيسيوس ومرافقاته من النسوة إلى السجن.

وبعد قليل وقعت المعجزة، فقد وجد الحراس أبواب السجن مفتوحة، وقد هربت النسوة وقيودهن محلولة من أيدهن، ولكن ديونيسيوس لم يشأ أن يهرب، بل بقي وحيداً، فطار صواب الملك، ووجه إليه كلاماً قاسياً ومهيناً، ولكن ديونيسيوس كان يجيبه بلطف ودعة، ليفتح عينيه على الحقيقة، وعلى رؤية الإله الذي يحدثه، ولكن الملك لم يأبه به، وأمعن في إهانته، وأعاده ثانية إلى السجن، على الرغم من تحذيرات ديونيسيوس المتكررة، من أن مصيره سيكون بشعاً إذا ما استمر على موقفه.

ومع ذلك فقد انطلق الملك، شخصياً، مع جنوده في ملاحقة أتباع ديونيسيوس في التلال والغابات، بعد أن انضم إليهن عدد من نسوة طيبة، ومن بينهن أم الملك الأميرة أغافي وزوجته وأخواته، اللواتي كن مؤمنات بالإله ديونيسيوس وتعاليمه، التي نشأن عليها مذ كان قدموس ملكاً على طيبة، إلا أنهن كنّ مغلوبات على أمرهن تجاه إرادة الملك الجديد.

وفي اثناء الملاحقة، ونتيجة إصرار الملك على موقفه، قام ديونيسيوس، بعدما يئس من إقناعه، بتحويل أولئك النسوة إلى مجانين، فاعتقدن أن الملك ما هو إلا وحش ضارٍ، فاندفعن إليه جميعهن ليمزقنه، وكان على رأسهن أمه أغافي.

وعندما انقضضن عليه بقوة، فاقت ما يتوقعه المرء من مجموعة من النسوة، أدرك أنه يحارب إلهاً، ولكن بعد فوات الأوان، فأيقن عندها أن عليه أن يدفع حياته ثمناً لتحدي الآلهة، فمات بأيدي أولئك النسوة وعلى رأسهن أمه.

وبعد ذلك أعاد ديونيسيوس إلى النسوة وعيهن، عندها أدركت أمه أغافي أي ذنب اقترفت يداها، فقتلت نفسها على الفور.

مات ملك طيبة بهذه الطريقة المفجعة على يد أمه، التي قتلت نفسها تكفيراً عن ذنبها الذي اقترفته يداها الآثمتان. فوقع الخبر على قدموس الجبار وقعاً قاسياً، أدرك بعده أنه لم يعد قادراً على تحمل هذه الأثقال من المآسي والمحن، التي رمته بها الآلهة.

***

{{ مـأسـاة قـدموس وخراب مـــدينة طيبـــة }}

طفح قلب قدموس الجبار بالآلام والأحزان، التي تعجز كواهل الرجال عن احتمالها، ولم يكن يعزّيه، أو يخفف من وطأتها، علمه بأن حفيده ديونيسيوس هو إله خالد، ولا أن ابنتيه سيميلي وإينو أصبحتا إلهتين خالدتين، ولا أي مجد من أمجاده التي حققها في حياته، فقرر أن يهجر طيبة، مدينته المحبوبة، إلى الأبد، ليمضي بقية حياته مع زوجته الوفية هارمونيا، بعيداً عن الشؤم وسوء الطالع، وعن عيون الآلهة ومكائدها.

طاف قدموس الجبار مع زوجته في مختلف ديار الغربة، إلى أن وصلا إلى منطقة بعيدة جداً، هي منطقة "إيلليريا"، التي تقع على ساحل البحر الأدرياتيكي، وهناك أخذ يسترجع، بذاكرته الزاخرة بالأحداث الجسام، ما نزل به من مصائب ومحن، وراح يحدث نفسه في حوار داخلي عميق:

"لقد اختطف زيوس اختي أوروبا، فجئت إلى هنا باحثاً عنها، وتركت صور ورائي، وأقمت في هذه البلاد الموحشة، حسب مشيئة أبوللو، فأين هو أبوللو يدرأ عني هذه المصائب، أتراه توارى خوفاً من سيده زيوس، أم أنه ينفذ إرادة زيوس وأثينا، ويرسم معهما المكائد؟.

ثم، أي شر فعلته لهذا الشعب؟ أهكذا يثاب من يبني مدينة عظيمة، ويعلم الناس فيها القراءة والكتابة، وينشر بينهم علوم الزراعة والصناعة لتعم فيما حولهم وفي القارة كلها، فيتحولون إلى قوم متحضرين، بعد أن كانوا غليظي القلوب، تجافيهم اللطافة والمعرفة؟. ولكن لا، فعزائي كبير بما قمت به.

ولتعلم الآلهة أنني قمت بما عجزت هي عنه، فإذا كان زيوس رب الصاعقة، فأنا رب القلم والحرف. وحيثما سار الإغريق، وأينما حلّوا، وكلما كتبوا، فإن حروفهم ستظل تقول إلى الأبد: هذا من فعل المعلم قدموس".

ولكن حقد الآلهة لحق به إلى تلك المنطقة البعيدة، وأيقظ في خاطره تلك النبوءة المشؤومة التي رمته بها أثينا، عندما صرع ذلك التنين الرهيب، فهتف في أعماق قلبه قائلاً:

"إذا كانت الآلهة تنزل بي كل هذه المحن، التي يعجز الإنسان عن حملها، لا لشيء سوى لأنني قتلت ذلك التنين، فمن الخير لي، وللآلهة، أن أستحيل بنفسي إلى تنين لأستريح مما أنا فيه".

وما إن أتم كلامه حتى بدأ جسمه يتطاول، ويكتسي بالحراشف، وأخذت رجلاه بالامتداد، واستحالتا إلى ذيل تنين طويل يتلوى، وصار يمد إلى زوجته الوفية هارمونيا ذراعيه، اللتين لم تختفيا بعد، ويدعوها إليه، والدموع تنسكب من عينيه، والهلع يمزق أوصاله قائلاً:

– هارمونيا... هيا إليّ... المسيني بيديك الطاهرتين،... المسي ذراعي قبل أن أستحيل بكليتي إلى تنين.

فانفتحت ذاكرته، في هذه اللحظة، إلى البعيد البعيد، واستدار بوجهه نحو الشرق، نحو سوريا، وأخذ يصيح ملتاعاً مستنجداً:

أبتي، فينيق، كيليك، أوروبا، وما إن انتهى من لفظ اسم أوروبا، حتى انشطر لسانه إلى قسمين، فتحول نطقه إلى فحيح، **واهتزت أرض القارة كلها، وكأنها لا تريده أن يلفظ غير "أوروبا" اسماً لها.**

هرعت إليه هارمونيا صائحة بأعلى صوتها:

– قدموس... قدموس... عُدْ إلى هيئتك السابقة.

واستدارت نحو السماء وصاحت:

– أيتها الآلهة، لماذا لا تحيليني أنا أيضاً إلى أفعى؟.

والتفّ قدموس التنين حول زوجته الوفية، واستعاض عن نطقه بلعق وجهها بلسانه المشطور، بينما كانت يداها تمسح ظهره المغطى بالحراشف، حزينة خائفة، فأحالتها الإلهة أثينا للتو إلى أفعى.

على هذه الصورة مات قدموس وماتت هارمونيا، وهما متعانقان وملتفان على بعضهما البعض.

***

لقد بدأت محن ومآسي قدموس بأبنائه وأحفاده، ولكنها لم تتوقف بموته وموت زوجته، بل امتد حقد الآلهة إلى سلالته، ولم ينتهِ إلا بانتهاء مدينة طيبة التي كان لها دوراً كبيراً في تعليم الإغريق مبادئ العمارة والزراعة والصناعة.

فقد استمرت طيبة، بعد قدموس، بالقيام بدورها الحضاري التنويري حتى عهد ملكها "لايوس"، الحفيد الثالث لقدموس، حيث قتل على يد ابنه أوديب، الذي دفعته الآلهة دفعاً إلى قتله، دون علم منه بأنه والده، وأصبح أوديب ملكاً على طيبة.

ولكن أوديب اكتشف، فيما بعد، المكيدة التي أوقعته فيها الآلهة، فقرر أن يعاقب نفسه على الذنب الذي اقترفته يداه، ففقا عينيه، وتنازل عن العرش، وهجر طيبة مشرداً مع ابنتيه، اللتين لم تفارقاه حتى مماته، حيث عادتا إلى طيبة.

وانفجر الصراع على العرش بين ولديه مما أدى إلى موتهما وموت ابنتيه ايضاً.

ولكن أبناء القادة، الذين قتلوا في هذا الصراع، هالهم موت آبائهم، وضمروا الشر لطيبة، فرأت أثينا في هذا الوضع فرصتها الذهبية، كي تصب ما تبقى لديها من حقد على طيبة، فأقامت تحالفاً بين مدينتها أثينا وبين هؤلاء الخونة ضد طيبة، مستغلة حقدهم وخيانتهم.

ونشبت بين هذا الحلف، بقيادة الإلهة أثينا، وبين طيبة حرب ضروس، هزمت طيبة في نهايتها، بسبب تلك الخيانة، وفرّ سكانها خارجها، وشردوا في الأرض هائمين على وجوههم، لا يلوون على شيء.

ومات في أثناء الفرار عراف طيبة المقدس، وأصبحت بذلك مدينة اثينا كبرى مدن الإغريق، بعد أن دُمرت طيبة عن بكرة أبيها، وسويت بالأرض تماماً، ولم يتبقَ منها سوى ذلك العقد المشؤوم، فأخذ إلى معبد ديلفي، التي استعادت مكانتها المقدسة، وبقي يعرض على الحجاج والزوار هناك مئات السنين.

***

وهكذا نرى كيف علّمت سوريا بلاد الإغريق أسس الحضارة التي انتقلت فيما بعد إلى القارة الأوروبية كلها، بعد أن منحتها سوريا اسم أميرتها أوروبـــــا

----- **انتهـــــت** -----

"ولتعلم الآلهة أنّني قمت بما عجِزَت هي عنه، فإذا كان زيوس ربّ الصاعقة، فأنا ربُّ القلم والحرف، وحيثما سار الإغريق، وأينما حلّوا، وكلّما كتبوا، فإن حروفهم ستظل تقول إلى الأبد: هذا من فِعْل المعلّم قدموس".